لا أراني.

الكتاب : لا أراني

الكاتب : أمل الأصيل

تصميم الغلاف : محمد محسن

تنسيق داخلي : يوسف الفرماوي

الطبعة : الأولى٢٠٢٠

رقم الإيداع:2019/28798

الترقيم الدولي :978-977-6783-27-0

الناشر : السعيد للنشر والتوزيع

المدير العام : لمياء السعيد

برج الهادي – الدور الأول - 36 ش عبد الحميد الديب – شبرا مصر

0222017260 – 01550096215

elsaidpublisher@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

لا أراني

رواية

تأليف

أمل الأصيل

السّعيد
للنشر والتوزيع

إهـــداء

إلـى ثلاثـة أصدقـاء أحبهـم كثيـرًا... جمعنـا العلـم أعوامًـا قليلـة وفرقتنـا الحيـاة... سـنظل أصدقـاء وأحبـة رغـم بُعـد المسـافات وانقطـاع اللقـاء.

الرائعة دائمًا: إيمان فكري

المتألقة باستمرار: سيمون سالم

البطلة الجميلة: هدى الريدي

هـذه الروايـة (لا أرانـي) لأمـل الأصيـل هـي ضمـن الروايـات الفائـزة فـي مسـابقة الروايـة الثانيـة لـدار السـعيد للنشـر والتوزيـع عـام 2019.

1

الوحيد الذي لم أكن أستطيع أن أراه هو وجهي.

استيقظتُ اليوم على كابوسٍ افترسني طوال الليل... وظلت صور أحداثه دائرة في رأسي حتى بعد أن فتحت عينيّ... رأيتُ وجهي مرسومًا على المرايا وفي انعكاس الزجاج وعلى أي مُسَطَح مائي كنت أمر بجواره أو حتى أُشاهده على انعكاس زجاجي أو شاشة تليفزيون... ثم يحدث أن تتجمع كل تلك الوجوه التي هي على هيئة صورتي وتبدأ في مهاجمتي والالتصاق بي، كنتُ أجري هربًا منها لكنها ظلت تطاردني وتلتصق بي... أصبح كل جسمي مُغطى بوجهي!... وأنا لا أدري ما هذا، وظللتُ طوال الحلم أجري وأحاول الهروب من وجهي فلا أستطيع.

قمتُ من فراشي مُنهكة من شدة الجري في الحلم وكأنني كنتُ أجري في الحقيقة، وضعتُ كلتيّ يديّ فوق وجهي وكأني أطمأن إلى أنه مازال في مكانه، وقد كان... ثم ذهبتُ إلى المرآة لأنظر لبطل هذا الكابوس المزعج لكني صُعقت مما شاهدت... كنتُ أقف أمام المرآة خالية من أي وجه... يظهر كل جسمي وحتى شعري لكن لا وجه لي! أصبحت منطقة الوجه ضبابية تمامًا وكأنها سحابة على وشك أن تُمطر... دققتُ النظر أكثر، أغلقتُ عينيّ وفتحتهما أكثر من مرة، ما أراه هو سحابة بلا شك، يختلط فيها الأبيض بقليل من الرمادي؛ ما هذا؟... أهو تأثير الحلم يتبعني في اليقظة أم أني مازلت أحلم؟!

أخذتُ أتحسس وجهي بيديّ الاثنتين فوجدتُ أنه يمكنني الشعور به؛ أشعر بملمس وتضاريس كل جزء فيه؛ الأنف، العينين، الحواجب، الشفتين، الوجنتين، الجبين؛ كل جزء موجود في مكانه لكن لا يظهر في المرآة غير أصابعي وهي تتحرك فوق سحابة بيضاء؛ أما وجهي

فلا أثرَ له... فتحتُ فمي وتحسست أسناني بأصابعي لكني لم أكن أرى في المرآة شيئًا مما في داخل فمي، أخرجتُ لساني لكنه لم يخترق السحابة ولم يظهر في المرآة... تركت هذه المرآة وذهبت لمرآة الحمام وكان نفس الرعب هناك في انتظاري؛ لا وجه لي... كنت في حالة من الفزع وبدأت أبكي فكانت قطرات الدمع تنساب أمامي في المرآة وكأنها قطرات مطر تهطل من تلك السحابة التي تحتل وجهي، بدون أعين تسقط منها أو وَجَنات تسيل عليها، بصقت في حوض الحمام فرأيتُ ما بصقته... إذًا أنا أرى ما يخرج من وجهي لكني لا أرى الوجه نفسه... ثم لاحظتُ أن لون السحابة التي أصبحت وجهي الجديد تتحول تدريجيًا من الأبيض للرمادي؛ استنتجت على الفور أنه ربما هي حالتي النفسية تؤثر على لون وجهي، وجهي الجديد الذي هو سحابة... ملأتُ يديّ بالماء وغسلت السحابة وأخذت أنظر لقطرات الماء وهي تتساقط من كل أجزائها، أصبح وجهي يُمطر بغزارة.

حاولتُ أن أهدأ كي أستطيع استيعاب هذا الذي يحدث؛ ذهبت للمطبخ وأحضرت زجاجة ماء وجلست في الصالة أشرب الماء بهدوء حتى يمكنني التفكير بعقلانية أكثر... لكني وأنا أرفع زجاجة الماء لأعلى أثناء الشرب وقعت عينايّ على الصورة المُعلقة على الحائط، الصورة الوحيدة التي تجمعني بأبي؛ كنت وقتها في الخامسة عشر من عمري... في الصورة كان وجه أبي ظاهرًا بوضوح ووجهي أنا سحابة بلون الشفق!... سقطت زجاجة الماء من يدي واقتربت أكثر من الصورة ولم يكن لوجهي أي أثر بها؛ فقط سحابة جميلة تميل للون الوردي... وكان شعري الأسود يُطوقها بجمال ويلتف حولها فيصنعان معًا لُوحة جديدة من نوعها، لُوحة لسحابة لها شعر طويل.

تركتُ هذه الصورة وذهبتُ مُسرعة لحجرة النوم، أخرجت من أحد

الأدراج ظرف الخطاب الذي أضع فيه صوري في المدرسة وتلك التي هي مع صديقاتي في الجامعة وأخذتُ أنظر فيها... كل الصور كانت خالية من وجهي، كلها سُحب بدرجات ألوان مختلفة... ما هذا اليوم؟ وما هذا الذي يحدث لي؟ أما زلتُ أُواصل الحلم أم أني أواجه أعتى أنواع الخيال؟

هل هذه لعنة أم أنها غضب إلاهي؟ أو ربما تعرضتُ لشيء ما مؤخرًا هو الذي سبب لي هذا التحول الشكلي الغريب؛ فمن غير المعقول أن يتسبب كابوس في المنام في تغيير وجهي في الواقع... أنا لم يصعقني مؤخرًا برق أو حتى ماس كهربائي، لم يخطفني طبقٌ فضائي ولم أُغادر كوكب الأرض... أخذت أتذكر ماذا فعلت بالأمس ومَن قابلت؛ لا أحد، لم أخرج من البيت منذ يومين، يوميّ الأجازة الأسبوعية، ولم أرَ في هذين اليومين أحدًا؛ قرأتُ رواية كاملة شاهدتُ أحد أفلام الخيال العلمي، صنعتُ طعامًا يكفي لأسبوعٍ بأكمله؛ هذا كل ما فعلته في اليومين الماضيين؛ لا يمكن أن يكون لأيٍ من هذه الأشياء سببًا في ظهور سحابة مكان وجهي.

عدتُ للمطبخ مرةً أخرى، فتحتُ الثلاجة وأخرجت كل ما بها من أواني وأطعمة، أخذتُ أُحصي على أصابعي ماذا أكلت بالأمس: بطاطس مقلية، بيض مسلوق، زيتون، بامية باللحمة، خبز، برتقال، موز، جزر، خيار، أيس كريم... هذه الأطعمة أكلت مثلها كثيرًا من قبل وكل الناس تأكلها؛ لا يمكن أن يكون أيًا منها قد سبب لي هذا الذي أراه في وجهي... ماذا إذًا؟

ربما أصابَ عينيّ مرضٌ ما يجعلني أرى الوجوه على هيئة سُحب... وبمجرد أن طَرَقَتْ هذه الفكرة رأسي خرجتُ مُسرعة من الشقة وطَرَقْتُ باب جاري العجوز الأستاذ مينا، الذي يعيش بمفردهِ مثلي... فتح لي الباب فرأيتُ وجهه بدون سُحب؛ إذًا المشكلة ليست

في عينيّ، إنها في وجهي... وقفتُ أُحدق في وجههِ وأنا أريد أن أرى انطباعه على رؤيتي بلا وجه، بسحابة تحتل وجهي! لكنه ظل صامتًا راسمًا علامات التعجب على وجهه ثم قال لي:

ماذا بكِ يا شروق؟ مالي أراكِ منزعجة هكذا؟

كلمة (أراكِ) منه كانت لها وَقْع السحر على أُذنيّ؛ إذًا فهو يراني، ولا بد أنه مازال لي وجهٌ يراه الناس، وليس سحابة بلا معالم؛ سألته على الفور للتأكيد:

تراني؟ هل تراني؟

ضيّق عينيه الصغيرتين علامة على اندهاشه من السؤال وقال لي:

ما هي الحكاية؟

لا توجد حكاية... فقط دخل شيءٌ ما في عيني اليسرى وهي تؤلمني بشدة؛ انظر هكذا... هل تراها حمراء أم ماذا؟

اقتربتُ منه بوجهي وأنا أفتح عيني اليسري عن آخرها بكلتيّ يديّ فازداد اندهاشًا؛ لكنه نظر فيها وقال لي:

لا شيء، عينكِ سليمة وليس بها شيئًا.

عيني سليمة وليس بها شيئًا؛ إذاً فهو يراها ويرى وجهي... ولماذا أنا لا أرى شيئًا من كل هذا؟ لماذا تحتل وجهي الغيوم؟ تركته بلا تعقيب يقف على الباب وعدتُ لشقتي وأنا أُحدث نفسي؛ وأغلق هو الباب مندهشًا يضربُ كفًا بكف من تصرفاتي في هذا الصباح... ثم انتبهتُ إلى أنني يجب أن أرتدي ملابسي وأُسرع للخروج حتى لا أتأخر على موعد العمل؛ حتى وإن كنتُ سأذهب لهذا العمل بلا وجه... يكفيني ما أنا فيه من مشاكل مع مديري في العمل... منذ ذلك اليوم الذي واجهتُ فيه إعجابه بي بالرفض وهو لا يتأخر عن اختلاق المشاكل لي.

ظللتُ أنظر لوجهي في المرآة وأنا أرتدي ملابسي وأكاد أن أُجَنْ

مـن هـذا الـذي يحـدث لـي؛ ثـم تذكـرت اسـمي القديـم (فـراق) الـذي قمـت بتغييـره وطلبـت مـن كل المحيطيـن بـي ألا يسـتخدموه مـرة أخـرى، بعـد أن أعطيـت نفسـي اسـم (شـروق) منـذ مـا يزيـد عـن عـام مضـى، أولـى بـي الآن أن أعـود لاسـمي القديـم (فـراق) فهـو يتناسـب مـع فـراق وجهـي لـي؛ أو قـد أصلـح لكـي أكـون (غـروب).

فكـرتُ فـي أنـه قـد تكـون مرايـا البيـت هـي السـبب، أصبحَـت لا تُظهر الوجـوه إلا علـى هيئـة سُـحب... سـأعرف بعـد قليـل إن كانـت هي السـبب أم لا؛ مـن مـرآة التاكسـي الـذي سـأركبه، ومـرآة الحمـام فـي المكتب.

ارتديـتُ ملابسـي ونزلـتُ بسـرعة فوجـدت أمـام المبنـى "سـامح" ابـن الجيـران، الطالـب فـي كليـة الهندسـة، يقـف هنـاك حيـث اتسـعت ابتسـامته بمجـرد أن رآنـي وألقـى علـيّ تحيـة الصبـاح كعادتـه؛ فحدقـتُ فـي وجهـه حتـى أتأكـد مـن أنـه هـو الآخـر يرانـي:

صباح الخير بشمهندسة شروق.

صباح الخير يا سامح.

بعـد أن تأكـدت مـن أنـه يرانـي ويواصـل ابتسـاماته، سِـرْت فـي طريقـي حتـى أجـد تاكسـي، وسـار هـو بجانبـي كعادتـه حتـى اسـتوقفت واحـدًا ونظـرتُ فـي مـرآة التاكسـي الجانبيـة تحـت نظـرات الاسـتغراب مـن "سـامح" وسـائق التاكسـي؛ وقـد كانـت السـحابة مازالـت فـي مكانهـا تحتـل وجهـي... فتـح لـي "سـامح" البـاب وركبـت ثـم لـوح لـي بيـده... غريـب أمـر "سـامح" كثيـرًا، فهـو يعتبرنـي قـدوة وأحيانًـا كثيـرة أشـعر بأنـه يعتبرنـي حبيبـة، يظهـر هـذا واضحًـا فـي عينيـه؛ فمَـن يُحـب بقـوة تفضحـه عيناه، وهـي تفضحـه بـكل تأكيـد... وأنـا مـن ناحيتـي لا أرى فيـه غيـر طفـل كبيـر بالنسـبة لـي؛ مشـاعري لا يمكـن أن أُعطيهـا إلا لرجـل، وهـو فـي نظـري مجـرد مراهـق.

المهـم أنـه كان يـرى وجهـي ولـم تظهـر لـه السـحابة، كذلـك سـائق

التاكسي الذي ركبته لم يُبدِ أي ملاحظة.

قبل أن أخرج من البيت أخذت معي في حقيبة يدي مرآة صغيرة، ظللتُ أُخرجها بين الحين والآخر لأنظر فيها فلا أرى غير الغيوم... كيف يُعقل أن يرى الجميع وجهي وأنا لا أرى إلا سحابة! أهذا نوع نادر وجديد من الأمراض؟ مرض نفسي أم عضوي أم ماذا؟... تمنيتُ لو أن كل هذا حُلمًا وعن قريب سأستيقظ منه؛ لكنه بدا وكأنه حقيقة لا فِرارَ منها... تذكرتُ في هذه اللحظات كل مَن أحبوني ثم تركوني ورحلوا، تصدر رحيلهم تفكيري كما تتصدر هذه السحابة وجهي... كيف طاوعتهم قلوبهم أن يتركوني مع ذكرياتهم هكذا؟ أصبحتُ من بعدهم وحيدة تمامًا؛ بلا شيء، والآن بلا حتى وجه... كيف لي أن أواجه العالَم بوجه بلا ملامح بشرية؟ إذا نظرت في المرآة لا أعرف كيف هي ملامحه، هل تبدو عليه علامات الصحة أم المرض، الرضا أم التعاسة.

أخرجتُ المرآة الصغيرة من حقيبتي للمرة الثالثة منذ أن ركبت التاكسي، نظرتُ فيها ربما أراني، ربما عادت لي ملامحي أو حتى جزء منها؛ العينين فقط، سأرضى بالعينين في أعلى السحابة؛ لكن لم أكن هناك، لم يكن شيئًا من وجهي هناك... وفي هذه الأثناء اصطدم التاكسي بسيارة أمامه والتصق وجهي بالكرسي الذي أمامي؛ نزل السائق ليرى حجم الضرر الذي أصاب التاكسي وبدأ شجاره مع صاحب السيارة التي اصطدم بها؛ لم يكن لديّ وقت لأنتظر حتى ينتهي من الشجار الذي لا أعرف مداه؛ لذا فقد تركت له النقود على الكرسي الأمامي وخرجت من التاكسي وسرت مبتعدة للأمام حتى أجد تاكسيًا آخرًا، وظللتُ أنظر لوجهي في كل مرآة سيارة أمر بجوارها؛ فلا أرى غير السحابة... يوم يبدأ بلا وجه لا بد وأن تكون هذه أحداثه.

قبل أن أصل للمبنى الذي به مقر الشركة بعدة أمتار تعطل التاكسي الثاني الذي أركبه في هذا الصباح، يا له من يوم... لذا فقد تركته وسرت هذه المسافة على قدميّ وظللت أثناء سيري في الطريق أنظر للمارة في الشارع وللناس بداخل السيارات كي ألفت انتباههم للنظر ناحيتي؛ لعلي ألاحظ أن أحدًا منهم يرى هذه السحابة التي نبتت في رأسي ويُظهر ذلك في تعبيرات وجهه... فقد يكون الأستاذ مينا لديه من العمر والخبرة ما يُمكنه من رؤية الوجوه التي هي على شكل سُحب، و"سامح" قد يكون لديه من الحب ما يُمكنه من رؤية وجهي أيًا كانت حالته، وسائقو التاكسيات ربما لا يهتمون بالنظر في وجوه زبائنهم... لكن كان كل شيء كالمعتاد، الكل ينظر ناحيتي بعدم اكتراث، ويمضي في طريقه دون أي اندهاش.

وصلتُ لمقر الشركة متأخرة حوالي نصف ساعة عن موعدي، وضعتُ الكارت الخاص بي أمام قارىء البيانات لتسجيل التوقيت، ثم ألقيتُ تحية الصباح على "سعيد" عامل الأمن الذي يجلس أمام الباب الخارجي، وتعمدتُ النظر في اتجاهه حتى يراني جيدًا؛ لكنه رد تحيتي دون أدنى اندهاش.

في طريقي لمكتبي كنتُ أنظر لكل مَن يقابلني من عمال وموظفين؛ وكانوا يتبادلون معي نظراتهم المعتادة وابتسامات عابرة في بعض الأحيان... وقبل أن أذهب للمكتب ذهبت للحمام ونظرت في المرآة المُعلقة هناك، وكانت السحابة هي كل ما رأيت مكان وجهي... إذًا كل المرايا لا تعكس إلا صورة السحابة.

في المكتب كانت "رحاب" زميلتي منهمكة في كتابة شيء ما على "اللابتوب" فردت صباحي دون أن تنظر ناحيتي... لكني اليوم بالتحديد أحتاج منها أن تنظر إليّ فربما لا تراني كما لا أرى نفسي، ربما ترى السحابة التي أراها... أريد أحدًا غيري لديه القدرة على ألا

يرانـي، لديـه القـدرة علـى رؤيـة الغيـوم مـكان الوجـوه.

وأنـا أفتـح "اللابتـوب" حاولـت الحديـث مـع "رحـاب" فـي بعض الأشـياء وكانـت تـرد باقتضـاب دون النظـر إلـيّ، لمـا هـي مشـغولة هكـذا منـذ الصبـاح الباكـر!... ثـم فجـأة توجهـت بوجههـا ناحيتـي ففرحـت؛ نعـم هكذا أُريـدكِ أن تنظـري إلـيّ، ونظـرت إليهـا بعينيـن فتحتهمـا علـى اتسـاعهما وبابتسـامة لا بـد وأنهـا كانـت بلهـاء؛ لكـن كان مـن المؤكـد أنهـا تـرى ملامحـي المعتـادة لأنهـا قالـت دون أدنـى ملاحظـة منهـا:

الأستاذ ربيع سأل عنكِ منذ الصباح؛ لماذا تأخرتِ؟

كل مـا تأخرتـه هـو نصـف سـاعة... مـاذا حـدث فـي نصـف سـاعة حتـى يسـأل عنـي مبكـرًا هكـذا؟

لا أعرف... اذهبي إليه في مكتبه فهو يريدكِ.

أستغفر الله العظيم... كم أمقت هذا الشخص.

ومَن لا يفعل؟

قبـل أن أذهـب إلـى مكتبـه أخرجـت المـرآة مـن حقيبـة يـدي ونظـرت فيهـا؛ مـا زالـت السـحابة تحتـل وجهـي... حسـنًا، ربمـا كان مـن الأفضـل ألا يـرى وجهـي هـذا الربيـع... مـا أسـوأ أن يكـون لمهندسـة مثلـي مديـر ليـس مهندسًـا... اختـلاف نوعـي وكَمـي فـي طريقـة التفكيـر وتنـاول المواضيـع... وحاجتـي للعمـل تفـرض علـيّ أن أحتمـل وأصبـر؛ لكـن إلـى متـى؟ ليـت صبـري يطـول قليـلًا حتـى أحـل مشـكلة وجهـي هـذه... أنـا لا أعـرف مـاذا ينتظرنـي بوجـه بـلا ملامـح، كيـف سـينظر لـي العالَـم عندمـا يمكنهـم رؤيتـي هكـذا بوجـه سـحابة؟ قـد يضعونـي فـي متحـف ليدفـع النـاس نقـودًا كـي يـروا "المـرأة السـحابة"، قـد يقتطعـون أجـزاء مـن وجهـي كـي يدرسـونها ويُجـرون علـيّ التجـارب، سـأدخل موسـوعة العجائـب ويكتبـون كُتبًـا عنـي ويُنتجـون أفلامًـا ومسلسـلات.

أخرجتني "رحاب" من شرودي وهي تقول:

هـاي شـروق، مـا كل هـذا الشـرود الصباحـي؟ اذهبـي للأسـتاذ ربيـع قبـل أن نجـده هنـا فـوق رؤوسـنا، وأنـا لسـتُ فـي مـزاجٍ يسـمح لـي برؤيـة صباحيـة لـه.

هـززتُ رأسـي بقـوة كـي أُسـقط عنهـا تلـك الأفـكار الغريبـة، وقمـتُ مـن مكانـي متوجهـة لمكتبـه، طرقـتُ بـاب المكتـب ودخلـتُ لا أدري مـاذا يريـد... قابَلنـي بابتسـامته المسـتفزة التـي أمقتهـا، وقـال لـي:

تفضلي يا بشمهندسة شروق.

حضرتك كنت طلبتني؛ خير يا أستاذ ربيع.

قال ببروده القاتل وكلماته المتأنية:

خيـر إن شـاء اللـه... مـا هـي أخبـار العميـل الجديـد الـذي تتابعيـن طلباتـه؟

أنـا حاليًـا فـي اتصـال مـع العميـل لجَمْـع بيانـات أكثـر عما هـو مطلوب فـي الجـزء الخـاص مـن ناحيتـي، حتـى يمكـن معرفـة كل مـا يجـب شـراءه وتجهيـزه وخطـة التدريـب للموظفيـن الذيـن سـيعملون علـى البرنامـج... والبشـمهندس أميـر يقـوم بالعمـل علـى باقـي الأجـزاء؛ هـو مديـر هـذا المشـروع وحضرتـك يمكنـك أن تسـأله عـن المزيـد مـن التفاصيـل.

أنا بسألكِ أنتِ.

كان ينظـر لـي بنظـرة ثعلـب، وكنـتُ أستشـيط غضبًـا مـن داخلـي؛ لا ينقصنـي الآن هـذا الاسـتفزاز، يكفينـي مـا أنـا فيـه مـن اختفـاء وجهـي... لا بُـد وأن لـون السـحابة قـد تحـول الآن للأحمـر القانـي مـن شـدة الغيـظ؛ ليـت المـرآة معـي حتـى أراه... رددتُ عليـه وأنـا أُداري غضبـي خلـف ابتسـامة صفـراء لا أعـرف كيـف تبـدو:

سـأتحدث مـع بشـمهندس أميـر عـن باقـي التفاصيـل وأُرسـل لحضرتـك علـى الإيميـل آخـر المسـتجدات فـي الموضـوع ككل... عـن إذنـك.

تفضلي.

أنا مهندسة عمارة؛ مالي أنا وأنظمة التشغيل وبرامج الكمبيوتر... لكنها الوظيفة الوحيدة التي استطعتُ الحصول عليها بعد عام من السعادة، من عملي في المجال الذي درسته، المجال الذي أُحبه؛ يا ليتها دامت تلك الأيام الجميلة.

عدتُ إلى المكتب وطلبتُ كوبًا من الشاي وبضع قطع من البسكويت، ثم وقفت أمام النافذة وفتحتها عن آخرها، وأخذت أقوم ببعض تمارين التنفس؛ تنفس عميق لعدة مرات شعرت بعدها بهدوء وراحة أكثر؛ وذلك حتى يمكنني مواصلة يومي في العمل... وأنا أواصل التنفس العميق أمام النافذة سمعت "رحاب" تسألني دون أن تنظر ناحيتي:

ماذا قال لكِ الأستاذ خريف، أقصد ربيع؟

ابتسمتُ من وصفها له، وأتفق تمامًا مع هذا الوصف؛ فهو خريف أكثر منه ربيع، ورددتُ عليها:

لم يقل شيئًا هامًا... المهم هو ما لم يقله.

انشغلتُ باقي اليوم في زحمة العمل، لكني لم أنسَ مأساتي الجديدة مع ما حدث لوجهي... بحثتُ في الانترنت عن أشخاص يَرَوْن وجوههم بأشكال مختلفة؛ لكني لم أجد شيئًا ينطبق على حالتي أو حتى يقترب منها من قريب أو من بعيد.

2

في إعدادي هندسة نجحت بتقدير جيد جدًا، وكنتُ سعيدة جدًا، وأردتُ أن أهدي هذا النجاح لصاحب الفضل فيه، دكتور "تاج"، الذي لولاه ما كنت استطعتُ الالتحاق بكلية الهندسة... لم أكن قد كتبت له خطابًا جديدًا منذ بداية امتحانات نهاية العام، لذا فكرت أن أكتب له خطابًا طويلًا؛ تعويضًا له عن انقطاع خطاباتي عنه في الفترة الأخيرة؛ ثم رأيت أنه من الأفضل أن أذهب إليه بنفسي وأُخبره بنجاحي هذا.

وصلتُ سعيدة إلى المستشفى الذي يعمل فيها، سألت عن مكتبه، لكن كان ذلك الخبر الفاجعة في انتظاري "دكتور تاج مات"؛ هكذا ألقت إحدى الممرضات الجملة في وجهي وكأنها تقول شيئًا بسيطًا اعتادت أن تتفوه به كل يوم... لم يعي عقلي معنى هذه الكلمات الثلاث "دكتور تاج مات"، ولا بأية طريقة يجب عليّ أن أفهمها... حسبتها كذبة في البداية أو مزحة سخيفة من ممرضة لا أعرفها؛ لكنها كانت حقيقة صادمة، مميتة، أكدتها زميلتها التي تقف بجوارها عندما أعدت السؤال مرة أخرى بعصبية أكثر... وبعد أن فهمت معنى الكلمات الثلاث صرخت في وجهيهما، وخبطت بيديّ فوق الأوراق الموجودة أمامهما، وصنعتُ شَغبًا جمع حولي بعض العمال والمسعفين والأطباء، وكان من بينهم دكتور "رضا" الذي لم أكن أعرفه ولا هو يعرفني، لكنه عندما عرف سبب هذا الصَخَب والبكاء والدموع؛ سألني عن اسمي وعندما سمع اسمي "فراق" قال لهم إنه يعرفني، وأخذني إلى مكتبه وأنا في حالة إنهيار، بينما استمر هو في محاولة تهدئتي:

فراق... أنا دكتور رضا، الصديق المقرب لدكتور تاج الله يرحمه...

لقد حدثني عنكِ كثيرًا، وأنا كنت سآتي إليكِ قريبًا... هناك أشياء تركها لكِ تاج يجب أن تأخذيها... هناك أشياء أريد أن أتحدث معكِ فيها، لكن اهدئي أولًا.

حاولت أن أهدأ لكني لم أستطع؛ طلب من إحدى العمال أن يُحضر لي كوبًا من اليمون، وأجبرني على شربه، ثم أكمل كلامه:

تاج ترك لكِ خطابًا معي، كذلك ترك لكِ كل ما كان يملك من أشياء غالية عليه، أيضًا وضع لكِ في حسابكِ في البنك النقود التي ستحتاجينها حتى تنتهي من التعليم في كلية الهندسة... والأهم من كل هذا أنه طلب مني أن أجعلكِ تتركي الحجرة التي تُقيمين فيها في المقابر، وأن تنتقلي لتُقيمي في الشقة التي كان يقطنها؛ هو رتب لكِ كل شيء قبل أن...

وقبل أن يقول الكلمة التي أصبحت أعيها جيدًا، ازداد بكائي، ودخلت في حالة انهيار لا يمكن لكل ليمون العالَم أن يقوم بتهدئتها؛ فطلب من إحدى الممرضات أن تُحضر حقنة مهدئة، غرسها في ذراعي فبدأت أفقد قليلًا الاحساس بالألم النفسي، وبالأشياء من حولي.

بعد أن هدأت أخذني دكتور رضا في عربته وذهب بي إلى حيث أعيش في المقابر؛ كنت منقادة لما يقوله ويفعله، فاقدة للارادة والتفكير، وكأن روحي قد خرجت من جسدي وتنظر لكل هذا الذي يحدث من بعيد.

انتظرني في العربة وطلب مني أن أُحضر كل ما هو ضروري من الحجرة التي أعيش فيها، وأُغلقها، بحيث أعود وآخذ باقي أشيائي فيما بعد... طلبت منه أن يُمهلني عدة أيام حتى أُدرك أبعاد كل هذه المفاجئات التي ظهرت أمامي مرة واحدة، لكنه رفض وكان حازمًا في قراره، ولم يكن أمامي غير أن أقوم بتنفيذ ما يريد... فأخذت من الحجرة بعض الملابس وبعض الكتب وذهبت معه لا أعرف إلى أين.

فـي الطريـق وقـف بعربتـه أمـام "سـوبرماركت"، واشـترى منـه بعـض الأطعمـة والمعلبـات، قـال لـي أنـي سـأحتاجها حتـى أتأقلـم مـع المـكان الجديـد... ثـم توقـف بالعربـة أمـام بنايـة مكونـة مـن سـتة طوابـق، وصعدنـا حتـى الطابـق الأخيـر منهـا، ثـم فتـح بـاب شـقة علـى يسـار السـلم ودخلنـا، أضـاء المصابيـح، ثـم فتـح النافـذة؛ فرأيـت مـن خلالهـا مأذنـة وسـماء صافيـة... بعـد ذلـك أعطانـي المفتـاح وهـو يقـول لـي:

فـراق، سـأقوم بالاتصـال بمالـك البيـت لتحديـد ميعـاد لتوقعـي معـه عقـد إيجـار الشـقة باسـمكِ.

دكتور رضا، أولًا أنا أُريد أن أزور قبر دكتور تاج... أين تم دفنه؟

لقـد أوصانـي أنـا وحسـن بـأن نقـوم بدفنـه فـي المقبـرة الجماعيـة التـي بهـا أهلـه.

أريد أن أعرف مكانها، أرجوك خذني لهناك، هيا بنا.

ليـس الآن يـا فـراق، ليـس لـديّ وقـت اليـوم لهـذه الزيـارة، والمـكان بعيـد... فـي نهايـة الأسـبوع سـأمر عليـكِ ونذهـب لزيارتـه... انتظـري قليـلًا، سـأُخبر أسـتاذ مينـا جـارك بأنـكِ حضـرتِ... تـاج أوصـاه عليـكِ أيضًـا.

رأيتـه يتجـه للشـقة المقابلـة ويطـرق البـاب؛ حيـث خـرج لـه رجـل كبيـر فـي السـن، أشـيب الشـعر، طويـل، ورفيـع... تـرك بـاب شـقته مفتوحًـا واتجـه مـع دكتـور رضـا حيـث أقـف فـي الصالـة، وقـام بالترحيـب بـي باتسـامة كبيـرة مـادًا يـده فـي حـرارة:

مينا رمسيس، مدرس تاريخ على المعاش، وأحب الرسم.

صافحتـه بترحـاب مماثـل، وحاولـت أن أبادلـه الابتسـام؛ لكنـي لـم أسـتطع.

فراق جابر، طالبة في كلية الهندسة وأحب القراءة.

نورتـي المـكان يـا فـراق، تـاج حدثنـي كثيـرًا عنـكِ وطلب منـي الاهتمام بـكِ... اعتبرينـي مثـل والـدكِ واسـأليني عـن أي شـيء قد تحتاجيـن إليه.

دمعت عيناي وأصبحت على وشك البكاء؛ فأخرج دكتور رضا ظرف خطاب من حقيبة جلدية سوداء يُعلقها على كتفه وقال لي:

هذا الخطاب تركه لكِ تاج، وكل شيء هنا في الشقة قد تركه لكِ؛ ولكِ حرية التصرف فيه... سنتركك الآن، وإذا احتجتِ لشيء اسألي الأستاذ مينا، وسأحضر يوم الجمعة لنذهب لزيارة المقبرة التي بها تاج كما اتفقنا.

صافحاني ثم تركاني في بيت تاج وذهبا... تركاني مع كل هذه الذكريات الحية وخطاب في يدي، لا أدري ماذا به.

أغلقت الباب وأخذت أتجول في المكان بعينيّ... حجرتان وصالة ومطبخ وحمام، نوافذ تُطل على السماء من كلّ ناحية، ومآذن كثيرة تظهر واضحة من خلال النوافذ.

في الصالة وقعت عيناي على لوحة وحيدة مُعَلَقة هناك، مرسوم بها شجرة كبيرة كل أفرعها بلا أوراق، وفي منتصف الشجرة ورقة وحيدة خضراء... لم أستطع أن أعرف معنى اللوحة لكنها كانت تجذب النظر والتفكير.

وأنا أغوص بعينيّ في اللوحة، سمعتُ طَرْقًا على الباب؛ فتحته لأجد الأستاذ مينا يقف وفي يده صينية عليها بعض الطعام؛ شكرته، وأوضحت له أنه معي طعام؛ لكنه أَصَر على أن آخذها، وضعها بين يديّ وذهب.

وضعتُ صينية الطعام على المنضدة، وجلستُ على الأريكة الموجودة أسفل اللوحة، فتحت خطاب تاج وبدأت أقرأ:

عزيزتي صاحبة القلب البريء والكلمات العَطِرَة: فراق

ها أنذا أكتب هذا الخطاب الذي هو خطابي الأول والأخير لكِ... أولًا أحب أن أشكركِ على خطاباتكِ العذبة التي كانت تنتشلني مما أنا فيه، وتُنقذني من آلامي في أحيان كثيرة، مع كل خطاب منكِ كنتُ

أجد سعادة خاصة، وطعم حلو تشعر به روحي... سبعة عشر خطابًا، أعتبرها سبعة عشر وردة عطرة تلقيتها منكِ.

أنتِ تعرفين عني القليل، وسأذكر لكِ في خطابي هذا حكايتي باختصار، وسأقول لكِ ما لم أقله لأحد مُطلقًا، أختصكِ به وحدكِ؛ لأن مكانتكِ عندي ليست كأي أحد.

في صغري كنتُ طفلًا غير عاديً،ا بقدرات غير عادية، يمكنني عندما أُغمض عينايّ أن أسمع على مسافات بعيدة، ويمكنني عندما أُغلق أُذنايّ أن أرى على مسافات أبعد... ثم طورت هذه الحواس لديّ، وأصبح لديّ القدرة على تحريك الأشياء بعينيّ بمجرد تركيز النظر عليها... لم أقل هذا السر لأحد ولا حتى لأمي التي ماتت بالسرطان، وأصبحت من بعدها وحيدًا في البيت معظم الوقت؛ فكانت قدراتي الغريبة هذه هي كل حياتي، وطريقتي المفضلة في التسلية وقضاء الوقت؛ ففي المساء أُغمض عينايّ وأتجول بأذنيّ في كل بيوت المبنى الذي كنت أُقيم فيه؛ فأعرف حكايات الجيران، وأسرارهم، وأدخل بيوتهم، وأجلس معهم على موائدهم؛ كان لي في كل بيت مكان دون أن يدري أحد، وكنتُ بعينايّ أرى ما بداخل البيوت البعيدة.

وأنا طفل، ومنذ أن عرفت أول موت في حياتي، موت جدتي أم أبي؛ أصبحت أجمع في صندوقين أشياء تذكرني بمَن أعرفهم ويموتون، وأعطيت لهذين الصندوقين أسماء (صندوق الأحبة وصندوق الأشرار)... كنت أكتب على شيء ما يخص كل راحل منهم كلمات قليلة عنه تذكرني به وبحاله، طيب أم شرير... لا أعرف الآن ماذا أفعل بهذين الصندوقين بعد موتي؛ هما بالشقة التي تركتها لكِ لتُقيمي فيها من بعدي؛ لكِ حرية التصرف فيهما.

بعد موت أمي بحوالي عام تزوج أبي، وأكملتُ أنا دراستي في

مـدارس داخليـه، وفـي الأجـازات كنـت أبقـى فـي منـزل عمتـي... وبعـد أن دخلـت كليـة الطـب فضلـت أن أعيـش بمفـردي بعيـدًا عـن عمتـي... وكنـت كلمـا تقدمـت فـي العمـر تقدمـت فـي الحـواس؛ وأصبحـت أشـم رائحـة الكلمـات؛ لا تسـتغربي، نعـم كنـت أشـمها، سـواءً أكانـت كلمـات منطوقـة أو مكتوبـة، فالكلمـات الصادقـة تكـون رائحتهـا عطـرة والكاذبـة تكـون رائحتهـا كريهـة... ثـم أصبحـت لـي القـدرة علـى أن أتـذوق الطعـام بطريقـة مختلفـة، الطعـام الحـرام أو مـن مـال حـرام أشـعر بـه مـر الطعـم فـي فمـي، والطعـام ذو المصـدر الحـلال يكـون لذيـذ الطعـم... وآخـر الحـواس التـي نضجـت لـديّ كانـت حاسـة اللمـس؛ فقـد أصبـح بمقـدوري عندمـا ألمـس شـخصًا مـا أن أعـرف مـا يفكـر بـه فـي تلـك اللحظـة.

أعـرف أن هـذا الـذي أقولـه لـكِ مرعب، وفـوق قـدرات البشـر العادييـن؛ لكـن هـذا مـا حـدث لـي، والـذي عرفـت سـببه متأخـرًا جـدًا؛ عندمـا كشـف لـي الماضـي حقيقـة مَـن أكـون... كنـت ابـن لعنـة قديمـة؛ قريـة احتـرق كل مـا فيهـا وفقـد كل الناجيـن مـن النـار ذاكرتهـم، ثـم فقـدوا حياتهـم بعـد عـام مـن هـذه المأسـاة، وبقيـتُ أنـا الطفـل الوحيـد الـذي وُلـد بعـد الحريـق، وسـرقتني مـن الملجـأ أمـي التـي أعطتنـي اسـمها واسـم زوجهـا، وشـكلت لـي حياتـي ومسـتقبلي، وظلـت بجـواري حتـى ماتـت بالسـرطان، ثـم تركـت لـي خطابًـا قبـل موتهـا تُخبرنـي فيـه بحقيقتـي ومَـن أكـون... خطـاب لـم يصلنـي إلا بعـد أن أنهيـت تعليمـي الجامعـي وأصبحـتُ طبيبًـا.

قلـب هـذا الخطـاب حياتـي رأسًـا علـى عقـب، وأصبـح شـغلي الشـاغل هـو البحـث عـن هـذا الماضـي ومعرفـة مَـن أكـون، ابـن مَـن أنـا، وأيـة لعنـة هـذه التـي أنـا موصـوم بهـا... إلـى أن عرفـتُ الحقيقـة، وحصلـتُ علـى الميـراث الـذي تركـه لـي مصبـاح7، آخـر مَـن مـات بقريتـي التـي أصابتهـا اللعنـة، والـذي خصنـي بمذكراتـه وبالقصـة كاملـة لمـا حـدث... سـتجدين هـذه المذكـرات التـي تركهـا لـي فـي الشـقة؛ لـكِ أيضًـا حريـة

التصرف فيها، كل ما كنت أملك هو لكِ يا فراق، ولكِ حرية التصرف فيه.

بعد أن عرفت مَن أنا، وأثبت ذلك؛ أخبرت الجميع بهذا إلا أنتِ؛ لم أكن أريد لشيء أن يشغلكِ عن دراستكِ، لكني أُخبركِ الآن بالقصة كلها وأخصكِ فيها بأسرار لم أقلها لأحد... بعد أن عرف مَن حولي حكايتي، منهم مَن تقبلها وتقبلني، ومنهم مَن نظر لي باستغراب وأخذ يتعامل معي في حذر... ثم بدأ كل شيء ينهار بعد ذلك، فقدتُ حواسي الخارقة، ثم فقدتُ صحتي؛ وأنا الآن بيني وبين الموت خطوات قليلة، ربما أيام معدودة... كتبت الحكاية كلها في كتاب (كتابي الأول والأخير)، وأوصيت صديقايّ رضا وحسن أن يقوما بنشره بعد موتي؛ احصلي منهما على نسخة واقرأيه كي تعرفيني أكثر، تعرفي مَن أنا، ومَن هم أهلي.

عمتي إقبال هي الأقرب لي من كل أهلي، ممَن كنت أحسبهم أهلي، قضيتُ أيامًا عديدة في بيتها قبل أن أستقل بحياتي، حتى بعد أن عرفت حقيقتي، وابن مَن أنا، ظلت تحبني كما كانت وتعتبرني كابنها، لم تُبدل حبها لي يومًا... مؤخرًا حكيتُ لها عنكِ، أخبرتها بحبي لكِ وبأنني سأترك لكِ ملابسي وكتبي وشقتي لتعيشي فيها؛ عندما سمعت هذا لم تقل شيئًا، فقط احتضنتني وبكت... أترك لكِ هنا في الشقة عنوانها ورقم تليفونها؛ تحدثي معها يا فراق واسألي عنها، دعيها تساعدك إذا احتجتِ لمساعدة، هي شخصية قوية، امرأة بمئة رجل.

لقد أوصيتُ رضا أن يسأل عنكِ، ويظل على صلة دائمة بكِ؛ رضا أقرب أصدقائي لقلبي، وأفضل إنسان من الممكن أن تعتمدي عليه؛ اسمعي نصائحه والجأي إليه إذا احتجتِ لشيء... أيضًا أوصيتُ عليكِ جاري الأستاذ مينا، ستعرفينه عندما تأتين هنا.

قبل أن ألتقي بكِ كنت على علاقة بطبيبة تكبرني بعام، اسمها "هدى"، طبيبة أطفال... كانت قصة حب لم تكتمل، وتركتني كي تتزوج ممَن هو أكثر مني شهرةً ومالًا... ورغم الألم الذي سببته لي؛ فقد نسيتها، وأحببتكِ أنتِ يا فراق... نعم أحببتكِ، ها أنا ذا أقولها، أنتِ أجمل وآخر حب دخل قلبي.

في خطابكِ العاشر الذي بدأتيه بـ (عزيزي تاج الحب) وبسؤالكِ: "هل وقعت في الحب يومًا؟"؛ كنت في تلك اللحظة واقعًا فيه، في حبكِ أنتِ.

أعتذر عن أي ألم سأسببه لكِ برحيلي هذا؛ لكنه لم يكن باختياري؛ لم يكن شيئًا مما حدث لي باختياري.

محبتي التي لم أقلها لكِ في حياتي.

تاج

بكيتُ كثيرًا وأنا أجلس مكاني، وأعدتُ قراءة الخطاب مرة أخرى؛ ثم احتضنته ونمت في مكاني على الأريكة... وعندما استيقظتُ؛ كان الليل قد ملأ كل الأماكن، وكنتُ أشعر بالجوع، ويأتيني من النافذة صوت آذان عذب... وقفت أمام النافذة، وفتحتها عن آخرها، وأخذت نفسًا عميقًا، وظللتُ أنظر للمباني من حولي، واستشعرت هدوء الليل يتخللني، والهواء النقي يُرحب بي في هذا المكان الجديد عليّ... وكان يتدلى من قبة السماء قمرٌ أبيض على شكل هلال؛ وكأنه ابتسامة ترحيب كبيرة... أخيرًا سيمكنني دون خوف أو خجل أن أُخبر زملائي في الكلية أين أسكن.

أكلت قليلًا من الطعام الذي أحضره لي أستاذ مينا، ثم بدأت أتفحص باقي الشقة التي لم أكن رأيت منها غير الصالة... كل حياة تاج، وتفاصيله، وأشياؤه؛ كانت حاضرة في المكان، لم يكن ينقص شيء غير وجوده.

جلست أمام كل ما تركه لي؛ وأخذت أسأل نفسي: "ماذا عسايّ قد أفعل بإرث كهذا؟".

في نهاية الأسبوع حضر دكتور رضا كما اتفقنا لكي نذهب لزيارة المقبرة لتي بها تاج... أخذني معه في عربته لمكان لم أكن أعرف أنه موجود، بلدة محترقة لا يقربها أحد، بلدة أصابتها يومًا لعنة، وبجوارها مقبرة جماعية تضم أهل هذه البلدة الذين عاشوا فصول تلك اللعنة... وقفنا أمام المقبرة، ولم أكن أعرف أين بالضبط يوجد مكان جثمان تاج، أخذ دكتور رضا يدعو لهم ولتاج لعدة دقائق؛ ثم ابتعد عدة خطوات عني، ووجدت نفس لا أقدر على قول شيء، فقط كنت أبكي.

بعد عدة أسابيع، ذهبتُ لحجرتي في المقابر؛ لكي آخذ باقي أشيائي التي تركتها هناك، وأُودع ذلك المكان الذي لم أكن أنوي العودة إليه إلا بعد أن أفارق الحياة؛ مثل أي إنسان طبيعي لا يذهب ليقيم في المقابر إلا وهو جثة تحتاج لقبر... يكفيني ما عشته من عُمر وسط الأموات، فترة من حياتي قد مرت ويجب عليّ أن أطويها خلفي، وأتعرف على الحياة الواسعة بكل ما فيها من جمال؛ بعيدًا عن رائحة الموت وذكراه المستمرة.

ذهبتُ أولًا لزيارة قبر أبي وأمي، دعوت لهما كثيرًا، وكذلك زرت قبر أم سعد ودعوت لها؛ ثم عدت لحجرتي القديمة، حيثُ جمعت ما أريده من أشياء بها: ملابس، حذاء، كتب، أوراق وشهادات، صور... ثم وقفت أمام صندوق الطفولة كما كنت أسميه، حيثُ أحتفظ بداخله بالألعاب القليلة التي كنت ألعب بها وأنا طفلة، حصان خشبي ينقصه أحد الأرجل، عروسة من القطن بذراع واحدة، طائرة ورقية ممزقة الأجنحة، وكيس من "البلي" الملون، تركت كل شيء كما هو في الصندوق، وامتدت يدي لكيس "البلي"، فتحته وملأت

كفـي بالكـرات الزجاجيـة الملونـة التـي كنـت أسـبح بداخـل ألوانهـا وأنـا صغيـرة فـي لحظـات تأمـل كثيـرة، أخـذت هـذا الكيـس معـي لأنـه يذكرنـي بلحظـات صفـاء وسـعادة كانـت تمنحنـي إياهـا هـذه الكـرات الزجاجيـة الصغيـرة.

أخـذت أيضًـا صنـدوق أوراق أبـي الـذي كان يحتفـظ بداخلـه بشـهادات وأوراق وعناويـن تخـص أخواتـي البنـات قبـل أن تنقطـع أخبارهـن عنـا... سـألته يومًـا: "لمـاذا لا تبحـث عنهـن وتعـرف أخبارهـن؟" فـرد علـيّ قائـلاً: "ومـاذا قـد يفيـد البحـث عنهـن وأنـا لا أسـتطيع تقديـم شـيء لأيـة واحـدة فيهـن"... علـى مـدار أعوامـي معـه قبـل أن يمـوت وهـو يـزرع بداخلـي هـذه الفكـرة، أن مَـن تخـرج مـن هنـا يجـب ألا تعـود مـرة أخـرى، وهـا أنـا ذا أفعـل.

تركـت باقـي الأشـياء، وكل مـا فـي الحجـرة مـن أوانـي، وأثـاث، وملابس؛ لمَـن سيسـطو عليهـا ويعيـش فيهـا مـن بعـدي، لا أريـد أن أعـرف مَـن سـيفعل هـذا ولا أفكـر فيـه... تركـتُ البـاب مواربًـا خلفـي، وذهبـتُ دون التفـات.

3

مـر أسـبوع الآن علـى اختفـاء وجهـي وظهـور السـحابة مكانـه؛ أحـاول أن أعتـاد علـى وجودهـا لكنـي لا أسـتطيع؛ لـذا أصبحـتُ أكثـر عصبيـة، وسـيئة المـزاج باسـتمرار... حاولَـت رحـاب أن تعـرف مـا بـي؛ لكنـي التزمـتُ الصمـت؛ فتركتنـي وشـأني... أصبحـتُ لا أبالـي بشـيء حتـى وإن تركـت العمـل، حتـى وإن عـرف النـاس سـر وجهـي السـحابة.

ليـس لـي تواصـل مـع أقـارب أو أصدقـاء مقربيـن، حياتـي الاجتماعيـة محـدودة للغايـة، أو تـكاد تكـون منعدمـة... أنـا أُشـبه حلـزون ينغلـق علـى نفسـه هاربًـا مـن العالَـم ومـا فيـه... أُفضـل الجلـوس فـي البيـت علـى الخـروج إلا للعمـل أو للضـرورة، تسـليتي تتمثـل فـي أن أذهـب فـي جولـة داخـل كتـاب، أو أن أسـتمتع بمشـاهدة فيلـم جميـل... أتعامـل بحـذَر مـع الآخريـن، وأضـع دائمًـا حاجـزًا بينـي وبيـن كل مَـن يحـاول الاقتـراب منـي، جـدار شـاهق وسـميك شـيدته بنفسـي كـي يفصلنـي عـن الآخريـن.

وأنـا أبحـث عـن أي منفـذ لضائقتـي هـذه تذكـرت أسـتاذ "محمـد إبراهيـم"، صاحـب المكتبـة التـي كنـت أعمـل بهـا، هـذا الرجـل عنـده مـن الحكمـة مـا لـم أجـده فـي أحـد غيـره... عملـت معـه فـي المكتبـة لمـدة خمسـة أعـوام متواصلـة، ثـم توقفـت عـن العمـل هنـاك وأنـا فـي عامـي الأخيـر فـي الكليـة، وقبـل أن أتـرك العمـل أوكل لـي مهمـة أن أجـد مَـن يسـاعده فـي المكتبـة بـدلًا منـي.

وقعـتُ يومهـا فـي حيـرة، فيمَـن قـد أختـار ليكـون خليفـة لـي فـي هـذا المـكان الـذي أحبـه، بحثـتُ فـي رأسـي ومـن حولـي؛ إلـى أن وجدتـه، "سـامح" ابـن الجيـران... عندمـا انتقلـت للعيـش فـي هـذا المبنـى، كان سـامح فـي الصـف الأول الثانـوي، يعيـش فـي الطابـق الثالـث مـع والدتـه وأختيـه التـوأم اللتـان تصغرانـه، والدتـه سـيدة مكافحـة وبشوشـة الوجـه،

تبتسم لي كلما رأتني، تُوفيّ زوجها منذ حوالي عامين، وهي تعمل وتُربي أبنائها، ثم بدأ سامح يساعدها كلما وجد فرصة للعمل، كان قد نجح بتفوق في الثانوية العامة والتحق بكلية الهندسة، الكلية نفسها التي كنت أذهب إليها، كنت في عامي الأخير وهو في عامه الأول... ألتقي به كثيرًا في الصباح، وأحيانًا أجده ينتظرني أمام المبنى حتى نذهب للكلية معًا... يصغرني بحوالي خمسة أعوام، وأعتبره كأخ أصغر، لكن نظراته لي لم تكن تعتبرني كذلك... حتى الآن ألتقيه كثيرًا صدفة أمام المبنى، وربما هي ليست صدفة، أشعر به يحبني، وفي كل مرة يكون أمامي يطل هذا الحب واضحًا من عينيه البنيتين الكبيرتين، ثم أجده يهرب بعينيه وينظر للأرض... رأيتُ أنه الأنسب لعمل كهذا؛ تحدثت معه ووافق على الفور، ثم أحضرته للأستاذ محمد؛ فقام باختباره، والموافقة عليه كبديل لي في المكتبة.

ذهبت للمكتبة، واستقبلني أستاذ محمد بترحابه المعتاد، وكذلك سامح بعينيه المحبتين... جلست أتحدث مع أستاذ محمد عن أحواله وأحوال المكتبة والكتب؛ ولاحظ بخبرته في التعامل مع البشر وجود شيء ما غريب يتملكني؛ حاولت أن أخبره بمشكلتي لكن لم تخرج مني أية كلمة عنها، ولُذتُ بالصمت، فلم يسألني؛ ثم قال لي أنه يجب عليه أن يترك المكتبة الآن لأن لديه واجب عزاء، وقبل أن يذهب أعطاني كتابًا كي أقرأه؛ في كل مرة أحضر للمكتبة يُعطيني كتابًا جديدًا... وقال لي بوجهه البشوش:

اقرأي هذا الكتاب يا شروق، فسوف يُخفف من حِدة الموقف الذي تمرين به أيًا كانت صعوبته... وعندما تريدين الحديث تعالي؛ سأكون في انتظارك.

وضع الكتاب بين يديّ وخرج من المكتبة فنظرت للغلاف (طعام، صلاة، حب: امرأة تبحث عن كل شيء)، أنا لا أبحث عن كل شيء، أنا

أبحث فقط عن وجهي... نظرت لاسم المؤلف (إليزابيث جيلبرت)، لم أكن قد قرأت لها شيئًا من قبل، لكني أمسكت بالكتاب جيدًا، بكلتيّ يديّ؛ وكأنه طوق نجاة.

وقفت هناك ضعيفة وخائفة وأنا أُمسك بالكتاب، ولا أعرف ما هي الخطوة القادمة التي يجب عليّ أن أخطوها لحل مشكلة وجهي؛ وعندها وجدت سامح يقترب مني حتى وقف أمامي مباشرةً، لكنه لم يقل شيئًا، ترك عينيه المحبتين تقولان كل شيء، ثم اقترب مني أكثر... ماذا؟ هل سيُقبلني؟ لو فعلها الآن لتركته، ربما كانت قُبلة حبيب قد تُعيد لي وجهي المفقود، مثل تلك التي تلقتها الأميرة النائمة فاستيقظت من نومها الطويل... لكنه لم يفعل، ونظر إلى الأرض كعادته؛ فانسحبت من مكاني، وخرجت من المكتبة.

في طريق عودتي للبيت اشتريت كاميرا، وبدأت أقوم بتصوير وجهي كل يوم، أحتفظ بصورة يومية للسحابة ودرجة لونها... كنتُ أيضًا أقوم بتصوير السُحب التي تظهر في السماء... أحمل الكاميرا معي في كل مكان أذهب إليه، وكلما لمحت سحابة في السماء أو مجموعة سُحب أقوم بتصويرها؛ أصبح لديّ الآن مئات من الصور التي بها سُحب بمختلف الأحجام والأشكال والألوان، أفردها أمامي على شاشة الكمبيوتر، وأقف أمام المرآة، ثم أبدأ في مقارنة الصور بوجهي؛ هذه سحابة أجمل مني، وهذه بها تشوه واضح في جانبها، وهذه منتفخة أكثر من الازم، وهذه أصغر من أن تصلح لكي تكون وجهًا، أما هذه فإنها تبدو تمامًا وكأنها أنا.

المهندس أمير، زميلي في العمل، ويكبرني بخمسة عشر عامًا؛ أكن له احترامًا كبيرًا وتقديرًا؛ هو أكثر مني خبرة، وتعلمت منه الكثير في العمل الذي كان في نوعه جديدًا عليّ، ومازال يساعدني كلما احتجت لذلك... لديه صفة جميلة قلما نجدها في الآخرين،

وهـو أنـه يترفـع عـن صغائـر الأمـور، ولا يُعطـي لشـيء حجمًـا أكبـر مـن حجمـه... بعـد عـدة أيـام مـن اختفـاء وجهـي؛ لاحـظ أنـي لسـتُ علـى مـا يـرام؛ تحـدث معـي وأراد أن يعـرف مـا بـي؛ لكـن مـاذا عسـاي قـد أقـول لـه، أنـا لا أرانـي، هنـاك سـحابة تظهـر مـكان وجهـي! اسـتيقظت ذات صبـاح فوجـدت وجهـي قـد اختفـى؛ هـذا كلام لـن يصدقـه أحـد... أخبرتـه بأنـي متعبـه بعـض الشـيء؛ وقـد كان لديـه الحـل لمـا وصفتـه بالتعـب؛ فاقتـرح علـيّ أن آخـذ أجـازة لمـدة أسـبوع أسـتريح فيهـا... ووجـدت أن اقتراحـه هـذا هـو أفضـل مـا قـد أفعلـه فـي حالتـي هـذه.

علـى الفـور ذهبـت لمكتـب أسـتاذ ربيـع، وطلبـت موافقتـه علـى الأجـازة... وافـق علـى طلبـي بصعوبـة بعـد أن أخبرتـه بأنـي سـأعمل مـن البيـت خـلال الأجـازة إذا اقتضـى الأمـر لذلـك.

وضعـتُ آمـالًا كبيـرةً علـى هـذه الأجـازة؛ فربمـا عندمـا أسـتريح يمكننـي اسـتعادة ملامـح وجهـي، وإذا لـم يحـدث هـذا فيجـب علـيّ أن أجـد حـلًا لمحاولـة اسـتعادتها.

فـي اليـوم الأول مـن الأجـازة قـرأت روايـة (المحيـط فـي نهايـة الـدرب) لنِيـل جايمـان، غُصـتُ تمامًـا طـوال اليـوم فـي هـذه الروايـة العجيبـة، الهادئـة الصاخبـة فـي الوقـت ذاتـه... ثـم اختتمـت يومـي بمشـاهدة فيلـم القلـب الشـجاع (Braveheart)، فيلـم يعطـي الاحسـاس بالأمـل والشـجاعة، وأنـا فـي أمـس الحاجـة للاثنيـن معًـا.

فـي اليـوم الثانـي مـن الأجـازة كـررت سـيناريو اليـوم الأول، فقـرأت روايـة (طعـام، صـلاة، حـب) التـي أعطاهـا لـي أسـتاذ محمـد إبراهيـم، أعجبتنـي الروايـة كثيـرًا وتمنيـت لـو أفعـل مثـل "ليـز" وأرحـل بعيـدًا حتـى أجـد نفسـي وأجـد معهـا وجهـي، لكـن ليـس فـي مقـدور الجميـع الرحيـل حتـى وإن أرادوا... ثـم شـاهدت الفيلـم المقتبـس عـن الروايـة والـذي لـه نفـس الاسـم (Eat, Pray, Love) ولـم يعجبنـي الفيلـم بقـدر مـا أعجبتنـي

الروايـة... وجلسـتُ طـوال الليـل أفكـر لمـاذا أراد منـي أسـتاذ محمـد أن أقـرأ هـذه الروايـة وقـال لـي أنهـا سـتخفف مـن حـدة الموقـف الـذي أمـر بـه أيًـا كانـت صعوبتـه، ووصلـت لنتيجـة أنـه ربمـا لقـوة بطلـة الروايـة في هزيمـة الحالـة التـي كانـت تمـر بهـا وتخطيهـا، فـي إعـادة ترتيـب أجـزاء حياتهـا، فـي بحثهـا عـن السـعادة والسـلام الداخلـي إلـى أن وجدتهـا... لكـن حالتـي مختلفـة، وقصتـي غريبـة، لـن يصدقهـا أحـد، ولـن أجـد دواءً لهـا فـي كتـاب.

انقضـى يومـان مـن الأجـازة؛ ولـم يجـد جديـد فـي مسـألة اختفـاء وجهـي... وبالاضافـة للقـراءة ومشـاهدة الأفـلام فقـد قمـت خـلال هذيـن اليوميـن بعمـل بعـض تماريـن الاسـترخاء؛ أجبـرت عقلـي علـى التوقـف عـن التفكيـر فـي شـيء، فعلـت كل مـا أمكننـي لأهـدأ؛ لكـن ظلـت السـحابة أمامـي كلمـا نظـرت فـي المـرآة، وأحيانًـا كنـتُ أُحضـر قلـم ألـوان وأرسـم علـى المـرآة فـوق السـحابة: عينيـن، حاجبيـن، أنـف، شـفتين؛ ثـم أقـوم بتلويـن الشـفتين بالأحمـر، وأظـل أقـف فـي ثبـات فـي مكانـي حتـى لا أتحـرك وتضيـع ملامحـي المرسـومة بعنايـة علـى الزجـاج.

قـررت فـي اليـوم الثالـث مـن الأجـازة أن أشـارك أحـد مـا فـي مشـكلتي هـذه، فعقليـن فـي التفكيـر أفضـل مـن عقـل واحـد... ولـم أجـد أفضـل مـن جـاري العزيـز الأسـتاذ مينـا كـي أحكـي لـه ويكـون أول مَـن يعـرف بهـذا الشـيء العجيـب الـذي يحـدث لـي... قـررت أن أصنـع طبقًـا مـن الحلويـات آخـذه معـي، ووقـع اختيـاري علـى أرز باللبـن والمكسـرات... ومـع العصـر ارتديـت ملابـس الخـروج، وأخـذت إنائـيّ الأرز باللبـن والمكسـرات، وطرقـت بـاب شـقة الأسـتاذ مينـا؛ اسـتغرق عـدة دقائـق حتـى فتـح البـاب، وعندمـا ظهـر أمامـي كان شـاحب الوجـه، ويبـدو عليـه التعـب والارهـاق:

عمو مينا، ماذا بك؛ تبدو متعبًا؟

لا شيء جديد، أمراض الشيخوخة المعتادة يا شروق... تفضلي.

دخلت ووضعت الأطباق على المنضدة التي تتوسط الصالة، وبعد أن جلس قدمت له طبقًا وجلست أمامه:

لماذا تعبتِ نفسكِ يا شروق؟

أين هو هذا التعب؟ ذق وقل لي رأيك.

ملأ ملعقته، وبعد أن تذوقها هز رأسه استحسانًا للطعم وأثنى عليه... وبعد أن أكلنا كل ما في الأطباق، وتناولنا بالحديث بعض الأخبار العامة من هنا وهناك، وضعت الأطباق جانبًا، ثم وضعت يديّ على وجهي الذي لا أراه، وقلت له وأنا لا أدري كيف يمكنني أن أخبره بمشكلتي:

أنا أيضًا يا عمو مينا أصابني مرض لا أعرف له اسم أو حتى تصنيف محدد.

خير، سلامتكِ... ماذا أصابكِ؟

ربما لن تصدقني، لكن لم أجد أحد غيرك أشاركه محنتي هذه.

نظر إليّ بعينيه الضيقتين في استفسار؛ فأكملت:

منذ أكثر من أسبوع وأنا لا أرى ملامح وجهي... أنظر في المرآة فأرى سحابة مكان وجهي؛ عندما أستيقظ في الصباح تكون سحابة بيضاء صافيه، وإذا أصابني اكتئاب تتحول للون الرمادي أو الأسود حسب شدة اكتئابي، وإذا غضبت تتحول لدرجة من درجات الأحمر حسب شدة غضبي.

شيء غريب لا يمكن تصديقه بالفعل؛ لكني أرى وجهكِ جيدًا، وملامحكِ التي أعرفها ها هي أمامي لا ينقص منها شيئًا.

كل الناس تراه إلا أنا.

هل انتقد أحد مؤخرًا ملامح وجهك، أو هل ترين أنتِ فجأة أنكِ لستِ جميلة؟ مع أني أراكِ جميلة يا شروق... ماذا حدث لكِ مؤخرًا؟

لا أعرف، ولا أجد شيئًا غريبًا قد حدث لي مؤخرًا، لم يكن وجهي يومًا مطروحًا في عقلي للنقد أو للمناقشة.

في هذه الحالة أعتقد أنها ربما قد تكون حالة نفسية.

ماذا؟ مرض نفسي! لم أسمع من قبل عن مرض نفسي أو حتى عضوي بهذا الشكل.

لا أدري بالتحديد؛ لكن هذا ما يبدو لي... الطب النفسي بحر عميق ويحتاج لغواص ماهر حتى يمكن اكتشاف ما في أعماق النفس البشرية والتي أحيانًا ما تطفو على السطح وتسبب لصاحبها بعض المشاكل، وفي بعض الأحيان قد تكون هذه المشاكل غريبة، وهذا الذي حدث لكِ ربما يكون إحداها... أنصحكِ بأن تستشيري طبيب نفسي.

لذتُ بالصمت ولم أرد على نصيحته بشيء؛ لأنه لم يخطر ببالي من قبل أن أذهب لطبيب نفسي، لا أعرف حتى كيف يمكنني طرق أبواب الطب النفس، وأي باب منها هذا الذي قد يصلح كمدخل لي... لكن في النهاية عليّ أن أُجرب أي شيء حتى أستطيع أن أستعيد وجهي وملامحي.

شكرت أستاذ مينا على تصديقه لي، وعلى النصيحة، وأخذت الأطباق الفارغة وهممت بالمغادرة... وأنا في طريقي لأغادر شقته وقفت أمام المرآة المُعلقة بجوار الباب، وقفز لرأسي سؤال: "هل ما نراه في المرايا هو نفس الشيء الذي يراه الآخرون؟" والتفت للأستاذ مينا وسألته إن كان يرى وجهي في المرآة أم أنه يرى السحابة، نظر للمرآة ثم لوجهي ولم يقل شيئًا؛ ففهمت أنه يراني، لا أحد يرى السحابة غيري، ربما كانت في رأسي أنا فقط.

عدتُ لشقتي وأنا أتخبط في أفكاري، ولا أدري ما هي الخُطوة القادمة التي يجب عليّ أن أخطوها؛ هل سأتقبل هذا الذي أنا فيه

وأُعلـن استسـلامي، أم أنـي سـأحاول تغييـره... ثـم أخـذت أتخيـل عالَـم بـلا وجـوه، بـلا ملامـح، فقـط سُـحب تسـبح مـكان الوجـوه بـلا سـماوات تضمهـا، عندهـا لـن ننظـر لأعلـى كـي نـرى السـحاب، يكفـي أن ننظـر مـن حولنـا... لـو حـدث هـذا الرعـب، تُـرى كيـف سـيتعرف النـاس علـى بعضهـم البعـض؟ وكيـف سـتكون الحيـاة؟ داهمنـي الخـوف مـن أن هـذا قـد يكـون مرضًـا جديـدًا، وأنـا المريـض رقـم صفـر، وسـيكون المريـض رقـم 1 هـو الأسـتاذ مينـا، أول مَـن رآنـي بعـد أن ظهـرت السـحابة مـكان وجهـي؛ ثـم يتوالـى المرضـى تِباعًـا: سـامح، كل مَـن رآنـي فـي الشـارع، سـائق التاكسـي، عامـل الأمـن فـي الشـركة، الموظفيـن الذيـن التقيـتُ بهـم هنـاك، رحـاب، الأسـتاذ ربيـع، المهنـدس أميـر؛ وهكـذا سـنصبح جميعًـا بـلا وجـوه، مـن ذوات السُـحب... تملكنـي هـذا التفكيـر المرعـب كبحـر مـن الأفـكار المتلاطمـة الأمـواج، الشـديدة التيـار؛ إلـى أن نمـت وأنـا غارقـة فيـه؛ فرأيـتُ أسـوأ حُلمًـا قـد يـراه إنسـان؛ وأطـول حُلمًـا قـد أراه فـي حياتـي.

4

قبل أن يبدأ عامي الدراسي الأول في قسم الهندسة المعمارية بأسبوع، وبعد ظهر يوم جمعة مشمس كنت أستمتع فيه بالنظر من النافذة لأسطح المنازل المجاورة والمآذن المحيطة، عندما سمعتُ طرقًا على الباب، فتحته فوجدتها تقف أمامي، طويلة القامة، ممتلئة الجسم، بيضاء، مستديرة الوجه... وقفت على الباب أتأملها دون أن أعرف مَن تكون، ربما كانت تقصد المنزل الخطأ لكني وجدتها تقول لي:

هل أنتِ فراق؟

نعم، مَن حضرتكِ؟

أنا إقبال، عمّة تاج.

أهلاً أهلاً بحضرتكِ... تفضلي.

شعرت بسعادة شديدة، وكأني كنت أشتاق إليها قبل حتى أن أراها، كأنها أحد أقاربي الذين جائوا لزيارتي... جالت ببصرها في المكان الذي كان يعيش فيه تاج، ثم جلست على الأريكة وجلست بجوارها؛ لا أدري ماذا أقول لكني كنت سعيدة بحضورها، فكسرت هي الصمت وقالت:

تاج حدثني عنكِ قبل أن...

واختنق صوتها بباقي العبارة التي كنت أعرفها، ودمعت عيناي كما دمعت عينيها ثم قالت:

الله يرحمه، كان في منزلة ابني؛ لقد أوصاني عليكِ.

تاج في منزلة ملاكي الحارس؛ انتشلني من المقابر، وساعدني على أن أحقق حلمي وأدخل كلية الهندسة.

ربنا هو الذي يسبب الأسباب؛ وكل إنسان يأخذ ما يستحقه في

هـذه الدنيـا.

طلبـت منهـا أن تحكـي لـي عـن تـاج كمـا تعرفـه، تحدثَـت كثيـرًا عنـه وعـن صفاتـه وأخلاقـه وذكرياتهـا معـه، أكلنـا بعـض "السندويتشـات"، وشـربنا العديـد مـن أكـواب الشـاي، وظلـت تحكـي وأنـا أسـتمتع بسـماعها؛ إلـى أن أتـى المسـاء فقامـت لتغـادر وهـي تقـول لـي:

تعالـي يـا فـراق لزيارتـي باسـتمرار، واطلبـي منـي أي شـيء قـد تحتاجيـن إليـه... اعتبرينـي عمتـكِ مثلمـا كان يفعـل تـاج.

شـكرتها بشـدة واحتضنتهـا بقـوة، حضـن مـن عمّـة أتتنـي بعـد طـول غيـاب... ثـم قلـت لهـا:

عندمـا أتيـتُ للسـكن هنـا كان يجـب أن يكـون لـي أهـل وسـط النـاس؛ لـذا فقـد سـمحت لنفسـي أن أُخبـر الجيـران فـي المبنـى أننـي أحـد أقربـاء تـاج، والـدايّ متوفيـان، ولـي عمّـة واحـدة تأتـي علـى فتـرات بعيـدة للسـؤال عنـي... أنـتِ هـذه العمّـة التـي كانـت فـي خيالـي وأنـا أقـول لهـم هـذه الكلمـات.

وأنـا سـآتي لزيارتـكِ كلمـا اسـتطعت... وبيتـي مفتـوح لـكِ كمـا كان مفتوحًـا لتـاج.

هـا قـد ازداد عـدد الأهـل الذيـن يسـألون عنـي ويهمهـم أمـري واحـدًا: الأسـتاذ محمـد إبراهيـم، الأسـتاذ مينـا، دكتـور رضـا، والعمّـة إقبـال.

بعـد أن ذهبَـت، وقفـتُ فـي الصالـة أنظـر للوحـة الشـجرة، وبجوارهـا الصـورة التـي علقتهـا والتـي تضـم صورتـي مـع أبـي، الذكـرى الوحيـدة الباقيـة لتذكرنـي بالماضـي الـذي كان... ثـم فتحـت جهـاز الكمبيوتـر الـذي تركـه لـي تـاج، والـذي وجـدتُ عليـه صـورًا لـه وأبحـاث ومـواد علميـة ومخطوطـة الروايـة التـي كتبهـا... فتحـت ألبـوم الصـور، وأخـذت أتجـول بيـن صـوره المختلفـة: فـي المدرسـة، فـي الجامعـة، مـع أقاربـه، مـع أصدقائـة، وبمفـرده... ظللـت أتصفـح صـوره إلـى أن نمـت؛ فرأيتـه فـي

الحلم على هيئة طائر أبيض كبير له وجه تاج وجناحيّ ملاك، وكلما حرك جناحيه تنبعث منهما رائحة عطور زكية، غمرتني وتخللتني... استيقظتُ من النوم، وكانت تلك الرائحة مازالت تملأ أنفي.

بعد انتهاء إمتحانات نصف العام الدراسي الأول لي في قسم الهندسة المعمارية، ذهبت لرؤية دكتور رضا لأطمأنه عليّ وأسأل عن أخباره:

فراق، أين أنتِ منذ عدة أشهر لم أسمع عنكِ شيئًا؟

الدراسة والإمتحانات... أخيرًا انتهى نصف عام بسلام.

كنتُ أريد أن أعطيكِ شيئًا ستفرحين به كثيرًا، أخيرًا انتهيت من طباعة الكتاب ونشره.

أي كتاب؟

كتاب تاج، الذي كتبه عن قريته ولعنتهم.

أخرج من درج مكتبه كتاب، ومد يده به ناحيتي؛ أخذته ونظرت للعنوان (قصة قرية)، وعلى الغلاف اسم تاج الذي ينتمي به لأهل قريته (تاج لطفي إبراهيم)... إنها القصة التي كتبها تاج عن أهل قريته ولعنتهم، ثم تركها لرضا كي يقوم بنشرها، أخيرًا أصبحت داخل كتاب يمكن للجميع أن يقرأه.

فتحت الكتاب على الصفحة الأولى وقرأت الإهداء:

"إلى مصباح7 الذي أهداني قبل أن يموت عامًا من حياته وحياة أهل قريتي... إليك أهدي كتابي الأول والأخير، كتابي الوحيد... أهدي لك كل الحكاية، ما كتبته وما لم تستطع أنت أن تعرفه".

عدت بكتاب تاج وأنا أحتضنه، وظللت أقرأ كل ما كتبه في هذا الكتاب، وتوثيقه لكل شيء بالصور والمستندات وشهادة شهود عيان عما حدث لهذه القرية وما أصابها من لعنة، وأجزاء بخط يد مصباح7 من مذكراته التي تركها لتاج والتي تعيش معي هنا في الشقة.

ظللت أقرأ حتى وصلت للصفحة الأخيرة من الكتاب، ونمت وأنا أحتضنه؛ فرأيتُ حلمًا جميلًا، رأيتهما معًا في الحلم، في مكان ممتلئ بالورود، تاج ومصباح7، ينظران ناحيتي ويبتسمان.

من بين كل مواقع التواصل الإجتماعي التي غزت حياتنا، أعجبني اثنان فقط، الفيسبوك والجودريدز... أما الأول فأفتحه مرات قليلة كلما أردت أن أعرف آراء الآخرين العامة أو أعرف أخبار أصدقائي الافتراضيين عليه... أما الثاني (الجودريدز) فقط أصبح من أهم وأكثر المواقع التي أفتحها، أضفت عليه كل الكتب التي قرأتها والتي أقرأها والتي أنوي أن أقرأها، عرفت من خلاله كتبًا لم أكن لأسمع عنها يومًا، ولم أكن لأتذوق حلاوتها؛ لولا وجود هذا الموقع... كم أعشق هذا الموقع وفكرته الرائعة في جمع الكتب وكاتبيها وعشاق الكتب في مكان واحد... قمت بعمل صفحة لكتاب تاج على الجودريدز، وكنتُ أول مَن يقوم بتقييمها بخمسة نجوم، وكتابة مراجعة طويلة ومستفيضة عن الكتاب، دعمتها بالصور وببعض مقاطع من الكتاب، وبصورة من صور تاج.

مع قرب امتحانات نهاية العام الدراسي الأول لي في الكلية في قسم الهندسة المعمارية، قالت لي يومًا صديقتي المقربة وجدان، أنني مدعوة في منزلهم على حفل يقيمه والدها المعماري المشهور؛ بمناسبة انتقالهم للإقامة في فيلا جديدة كان يقوم ببنائها وتجهيزها منذ ما يزيد عن عامين، تركوا الشقة التي ذهبت إليها مع وجدان عدة مرات، وأصبحوا الآن في فيلا فاخرة، كتلك التي نراها في الأفلام والمسلسلات.

مرت عليّ وجدان صباح يوم الإحتفال بسيارتها الزيتونية اللون في مثل لون عينيها، وذهبت معها للفيلا الجديدة، وفي الطريق قلت لها:

أخشى يا وجدان أن ينزعج والدكِ من حضوري المبكر هذا قبل أن يبدأ الحفل بكثير.

لا تخافي، لن يحدث هذا، بابا يسألني عنكِ باستمرار... هو يعرف أنكِ صديقتي المقربة، هو أيضًا الذي طلب مني أن أصطحبك إلى هنا منذ الصباح.

كانت الفيلا أجمل من أي وصف، تخطف الأنظار بجمالها وفخامة أثاثها، تُحيط بها حديقة بديعة، ويتصدرها حمَّام سباحة تتلألأ بداخله المياه الزرقاء.

استقبلني والدها بترحاب شديد، وبسعادة بدت في عينيه اللتان ورثت وجدان لونهما الزيتوني الجذاب... ثم أخذ يقوم بتوزيع المهام عليّ أنا ووجدان لنساعده في الترتيبات النهائية للحفل... أعطى كل واحدة منا ورقة بها قائمة بما يجب التأكد منه قبل بدء الحفل، وطلب منا كلما انتهينا من بَنْد بها، أن نضع علامة صح أمامه... كنتُ سعيدة وأنا أتحرك في تلك الفيلا الجميلة، وأنتهي من التأكد من البنود المخصصة لي في الورقة، وأضع علامات صح أمامها... وبعد أن انتهينا من كل المهام؛ أخبرنا بأنه قد أعد مفاجأة لنا وهي مكافأة لتعبنا هذا اليوم، وطلب مني أنا ووجدان أن نذهب لحجرتها، وهو سيُحضر المكافأة بعد قليل... كنا في شوق لمعرفة المكافأة وجلسنا ننتظره في ترقب.

حضر بعد قليل، يحمل فوق يديه فستانين جميلين؛ قدم لي فستان أزرق اللون، ولوجدان فستان وردي اللون... نظرَتْ وجدان بنظرة استغراب للفستان الذي كان يمد يده به في اتجاهي، وشعرتُ أنا بالخجل؛ لم أتوقع مكافأة كهذه، وكيف لي أن أقبل هذه الهدية التي تبدو باهظة الثمن، هل يحق لي أن أقبل؟ وعندما حاولت الشكر والرفض، لم يسمح لي، وطلب منا وكأنه أمر بأن نرتدي الفساتين

بسـرعة قبـل أن يبـدأ الحفـل ويحضـر المدعوييـن.

خففـت وجـدان مـن وقـع الموقـف الـذي لـم نكـن نتوقعـه نحـن الاثنتيـن، ومـن ارتباكـي الـذي بـدا واضحًـا بقولهـا:

أخيـرًا سـأراكِ يـا فـراق وأنـتِ ترتديـن فسـتان... لـم أتوقـع هديـة كهـذه مـن بابـا؛ لكنهـا هديـة جميلة.

كانـت المـرة الأولـى لـي التـي أرتـدي فيهـا فسـتان كهـذا، ولـم يكـن فـي مقـدوري أن أشـتري واحـدًا مثلـه... كان الفسـتان وكأنـه تـم تفصيلـه خصيصًـا لـي، كيـف لـه أن يعـرف مقاسـي بهـذه الدقـة!... كان جميـلاً، وقمـت بفـرد شـعري الطويـل؛ فبـدوتُ كمـا قالـت لـي وجـدان وكأننـي الأميـرة النائمـة، لا أدري لمـاذا إختـارت لـي هـذا اللقـب رغـم أنـي كنـت فـي كامـل اسـتيقاظي.

كانـت ليلـة سـاحرة، والفسـتان جميـل، والطعـام لذيـذ، وكل شـيء خيالـي ومريـح، مـا عـدا نظـرات وجـدان تجاهـي كلمـا مـر والدهـا بجوارنـا أو نظـر ناحيتـي، وكأنهـا تشـعر بالغيـرة منـي... كيـف لهـا أن تفعـل هـذا؟ وأنـا لـم أره فـي حياتـي إلا مـرات قليلـة.

انتهـى الحفـل بعـد منتصـف الليـل بقليـل، واسـتبدلت الفسـتان بملابسـي، وشـكرتهما عليـه وعلـى الليلـة الجميلـة، وطلبـت مـن وجـدان أن تقـوم بأخـذي لأقـرب مـكان يمكـن أن أجـد فيـه عربـة أسـتطيع العـودة بهـا للبيـت؛ لكـن والدهـا رفـض كل مـا قلتـه، وأصـر علـى أن آخـذ الفسـتان معـي فهـو هديـة لا يمكـن ردهـا، وكذلـك قـال أنـه سـيقوم بتوصيلـي للمنـزل فـي هـذا الوقـت المتأخـر؛ لـم أسـتطع قـول شـيئًا، وكذلـك وجـدان التـي قالـت أنهـا متعبـة وتركتنـا وصعـدت لحجرتهـا.

فـي الطريـق لـم أقـل شـيئًا، ولاحظـت أنـه ينظـر ناحيتـي بيـن الحيـن والآخـر؛ لكنـي تجاهلـت كل هـذه النظـرات... لـم أدلـه علـى طريـق المبنى الـذي أسـكن فيـه، لكنـه أوصلنـي حتـى هنـاك دون سـؤال واحـد، هـل كان

يعـرف الطريـق مـن وجـدان أم مـاذا؟ شـكرته وأخـذت الفسـتان، دخلـت المبنـى بسـرعة، وصعـدت السـلم فـي عجالـة، دخلـت الشـقة ووضعـت الفسـتان بجـواري ثـم احتضنتـه ونمـت.

بعـد هـذه الليلـة لاحظـت أن وجـدان تتجنـب ذكـر والدهـا أمامـي، ولم تدعونـي لحفـلات أخـرى فـي منزلهـم؛ وتجاهلـت أنـا كل هـذا، وانشـغلت تمامًـا فـي الدراسـة وفـي العمـل فـي المكتبـة، ونسـيتُ كل شـيء؛ إلـى أن وجدتـه بعـد حوالـي عامـيـن مـن تلـك الليلـة يقـف أمامـي فـي المكتبـة، لـم تكـن وجـدان معـه، وكان كمـا هـو يحمـل نفـس السـحر:

فراق، كيف حالكِ؟ هل تتذكريني؟

بالتأكيـد يـا بشـمهندس... حضرتـك مـن الأشـخاص الذيـن لا يمكـن نسـيانهم.

اتسـعت ابتسـامته، وقـال لـي أنـه كان بالقـرب مـن هنـا، وأراد شـراء بعـض الكتـب؛ ثـم سـألني عـن أحـوال الدراسـة، وشـجعني علـى التفـوق، وكذلـك أخبرنـي بـأن لـي مكانًـا أنـا ووجـدان فـي مكتبـه الهندسـي بعـد التخـرج... ثـم اختـار بعـض الكتـب التـي دفـع ثمنهـا، وسـلم علـيّ مـرة أخـرى وذهـب.

لـم أرَه مـرة أخـرى إلا يـوم حفـل التخـرج فـي الكليـة، حيـث كان سـعيدًا سـعادة حقيقيـة بتخرجـي أنـا ووجـدان، وطلـب منـي أن أحضـر بعـد أسـبوع لمكتبـه حتـى أتسـلم وظيفتـي الجديـدة كمـا وعدنـي، شـكرته بشـدة، وكنـتُ فـي غايـة السـعادة، ولـم تقـل وجـدان شـيئًا.

5

أفرطتُ كثيرًا في التفكير تلك الليلة التي نصحني فيها أستاذ مينا باستشارة طبيب نفسي؛ فرأيتُ في منامي حلمًا طويلًا هو بمثابة كابوس متعدد المصائب، بدأ الحلم باستيقاظي من النوم على صوت طرقات قوية على باب شقتي، وقد كان الأستاذ مينا هو الذي يطرق باب الشقة بقوة لا تتناسب مع سنين عمره التي تقترب من السبعين؛ فتحت الباب وصعقني ما رأيته؛ فقد كان بلا وجه، ظهرت مكان وجهه سحابة رمادية اللون... وهو بمجرد أن رآني تراجع للوراء مندهشًا، وقد أصبح الآن لا يرى وجهي بل يرى السحابة... هدّأت من روعه، وأحضرت له كوبًا من الماء؛ ثم تمالك نفسه وبدأ يتحدث معي:

استيقظت منذ قليل، وذهبت للحمام، لكن عندما نظرت في المرآة لم أجد وجهي فيها؛ اختفى، تبخر، ظهرت مكانه هذه السحابة... هل ترينه أنتِ أم ترين السحابة؟ ومالي لا أرى وجهكِ أنتِ أيضًا، ما هذه السحابة التي تظهر مكانه؛ ما هذا الذي يحدث؛ هل من تفسير؟

اهدأ يا أستاذ مينا حتى يمكننا التفكير... حدث لي بالأمس ما حدث لك اليوم؛ ترى هل هناك من رابط بين الاثنين؟ وما هو السبب، وهل حدث هذا لآخرين؟... أسئلة كثيرة تملأ رأسي الآن، ولا أجد لها أي تفسير.

هل يمكن أن يكون هذا مرض وقد أصابني بعد يوم من رؤيتي لكِ؛ وأصابكِ أنتِ بعد يوم من رؤيتكِ لشخص آخر لديه هذا المرض؟

لقد فكرتُ أنه ربما يكون مرض؛ لكن إذا كان تحليلك هذا صحيحًا، فأنا لم يصبني أحد، وربما أنا المريض رقم صفر... لأني ببساطة كنا في نهاية الأسبوع، ولم أخرج من البيت، أو أرى أحد لمدة يومين

قبل أن يختفي وجهي وتظهر مكانه السحابة.

ولكي نتأكد من صحة هذا الافتراض، هيا اذهبي للعمل، وتأكدي ممَن رأوكِ بالأمس هل لديهم وجوه اليوم، أم اختفت هي الأخرى وظهرت مكانها السُحب؟

هذا ما يجب عليّ فعله حالًا.

أمام المبنى الذي أسكن فيه أخذت أتلفت من حولي بحثًا عن سامح الذي أجده في انتظاري معظم الأيام، أردتُ أن أتأكد إذا كان وجهه قد تحول هو الآخر لسحابة أم لا، وقد كان ثاني شخص يراني بوجه السحابة بعد أستاذ مينا... ربما تحول وجهه لسحابة وهو يقف الآن أمام المرآة في حيرة مما يرى ومما يجب أن يفعل.

في مقر الشركة كان تأكيد الافتراض في انتظاري؛ كل مَن رآني بالأمس كان يسير أمامي بلا وجه، بسحابة لها درجة لون حسب شدة الحالة النفسية التي عليها صاحبها؛ موجة من الفزع والتوتر كانت تملأ المكان لكل مَن لديه أو ليس لديه سحابة مكان وجهه؛ رعب، خوف، ودموع تهطل من السُحب التي تعلو الرؤوس.

لا أدري كيف عرفت السلطات بهذا؛ ووجدنا عربات أمن تطوق المكان من الخارج، ورجال صحة بأرديتهم البيضاء وأقنعة تغطي وجوههم ينتشرون من حولنا... أخذونا جميعًا، كل مَن له وجه أو ليس له وجه، في عربات كبيرة مُصفَحة، ثم أدخلونا مكان متسع لا أعرف له اسم أو موقع؛ الذين مازال لديهم وجوه في حجرة كبيرة، ومَن ليس لديهم وجوه في حجرة أخرى مشابهة لها؛ حجرات واسعة بها العديد من الكراسي ومضاءة بلمبات فلورسنت بيضاء، كل شيء فيها يبدو قاحلًا وجافًا... وكلما مر الوقت أرى أشخاصًا جدد يدخلون الحجرة، عرفت أستاذ مينا من علامة الصليب في يده ومن صوته، وعرفني سامح لا أدري كيف؛ وجلسنا ثلاثتنا متجاورين في صمت

مطبـق، ننظـر لـكل السُـحب التـي تتحـرك مـن حولنـا.

بـدأت التحقيقـات مـع الجميـع واندلعـت الأسـئلة: متـى حـدث هـذا لـكل منـا، وأيـن تواجدنـا منـذ أن حـدث هـذا، ومَـن رأينـا منـذ ذلـك الحيـن، وعناويـن مـن رأيناهـم، وأماكنهـم... كانـوا يحاولـون السـيطرة علـى هـذه الحالـة التـي كان مـن الواضـح أنهـا تتفشـى بسـرعة تفـوق سـرعة تحركهـم لاحتوائهـا... لكـن هـل كان الوقـت فـي صالحهـم؟ وهـل يمكـن لحالـة كهـذه تنتقـل بمجـرد النظـر أن يتـم السـيطرة عليهـا؟

مرعـب أن تسـمع أحدهـم يتحـدث إليـك وعندمـا تنظـر إليـه تجـد سـحابة مـكان الوجـه؛ لا شـفتان تتحـركان، لا أعيـن تنظـر فيهـا، ولا تعبيـرات وجـه تسـتدل منهـا علـى حالـة الـذي يتحـدث أمامـك.

كنـا أصحـاب الوجـوه التـي أصبحـت سُـحب نتعـرف علـى بعضنـا البعـض مـن خـلال مـا نرتديـه، وعلـى الحالـة النفسـية لـكل منـا مـن خـلال لـون سـحابته... ولكـن هـذه المعرفـة متغيـرة بتغيـر الملابـس وبتغيـر لـون السـحابة... وأيضًـا إذا تحـدث شـخص مـا يقـف وسـط مجموعـة لـن تعـرف مطلقًـا أيًـا منهـم الـذي يتحـدث؛ تسـمع الصـوت فقـط ولا تـرى الوجـه النابـع منـه.

اسـتمرت التحقيقـات والبحـث، وتزايـد أعـداد الذيـن تختفـي ملامـح وجوههـم بصـورة سـريعة جـدًا، وكثـرت السُـحب وتكاثـرت بشـكل كبيـر... تحققـت نظريـة الأسـتاذ مينـا فـي تحديـد انتشـار المـرض، بأنـه يحـدث بعـد يـوم مـن رؤيـة شـخص قـد اختفـت ملامـح وجهـه... أصبـح الجميـع يتحـدث عـن الوبـاء الجديـد؛ فـي الصحـف، والإذاعـة، والتليفزيـون، وعلـى شـبكة الانترنـت التـي اشـتعلت بالأخبـار التـي لا تنطفـئ والإشـاعات التـي لا تهـدأ... أصبـح النـاس يخشـون النظـر فـي وجـوه بعضهـم البعـض؛ فقـد يكـون فـي هـذا إضاعـة لملامحهـم... حبـس أصحـاب الوجـوه أنفسـهم فـي منازلهـم حتـى لا تقـع أبصارهـم علـى أحـد لديـه العـدوى، تعطـل العمـل

وعمت الفوضى... تم منع السفر بين المدن والقرى، وحظر السفر من وإلى الخارج... ارتبكت الحياة بشكل كبير، وانعدمت الثقة بين الناس؛ فإذا كنت بوجه سحابة، قل لي ما هذا الذي قد يثبت أنك الشخص الذي تدعي أنك هو؟!

في الحلم كنا نجلس في حلقة دائرية، مجموعة لا تقل عن عشرة من أصحاب السُحب في رؤوسهم؛ نتبادل الأفكار عن نتائج تفشي هذا الوباء، مَن يبدأ بالكلام يرفع يده ويظل يرفعها أثناء حديثه حتى نعرف أنه هو الذي يتكلم... بدأ الحديث رجل رفيع ذو شعر رمادي ناعم يزاحم الأبيض فيه الأسود، ويدان يابستان، وسحابة تميل قليلًا للاصفرار:

توابع هذه المشكلة أكبر مما قد يتصوره أحد؛ فالوجه هو ما يُحدد هوية مَن نتعامل معه؛ وكم من خيانات قد تحدث بسبب اختفائه، وكم من طُرق احتيال ونصب نحن مقبلون عليها... نحن في مصيبة كبيرة وغضب إلاهي؛ ربما كانت لعنة.

بعد أن أنهى حديثه، رفعت سيدة بدينة يدها؛ يد بيضاء بضة، ذات أظافر مطلية باللون الأحمر، وهي كانت قصيرة القوام، لها شعر أصفر طويل، وسحابة وردية اللون:

مع تفشي هذا الوباء، ستختفي جراحات تجميل الوجه؛ لن يهدد تقدم العمر الوجوه بعد الآن، وليقل الجميع وداعًا للتجاعيد... ستُصبح للأيدي والأرجل والشعر قيمة أكبر في مضمار الجمال، وجمال الأظافر سيكون من النقاط الهامة في مواصفات ملكات جمال العالَم.

ثم رفع يده رجل متوسط الطول والحجم، أسمر اليدين، له بعض الشعيرات السوداء على أصابعه المكتنزة، وسحابة رصاصية داكنة مكان وجهه؛ وبدأ يتحدث:

سيقع الرجال بعد ذلك في حب ذات الأيدي الجميلة والقوام

المتناسق والصوت الرخيم؛ لن نقول بعد اليوم ما شكلها؛ سنقول ما شكل جسمها، منحنياته، طولها، ووزنها؛ وما شكل يديها، وأظافرها؛ وما هو طول شعرها، وحلاوة صوتها.

ثم رفع طفل يبدو في العاشرة من عمره يده؛ يعرف الجميع أنه طفل من طوله وصوته، وكانت له سحابة ناصعة البياض:

عندما نلعب الكرة يجب أن نرتدي ملابس عليها أسمائنا أو أرقام حتى نعرف مَن سيُسجل الهدف... لكن إن قال أحد في الفصل كلمات بذيئة فلن نستطيع معرفته أو معاقبته.

ثم رفع يده رجل طويل، رفيع، مجعد الشعر، ذو سحابة رمادية قاتمة:

من الآن فصاعدًا سنكتب نحن الشعراء قصائدنا في ذات الأصابع الطويلة، والأظافر القوية، والشعر الحرير، والصوت الموسيقي... ولننسَ الأشعار التي تتغزل في جمال العيون والشفاه، في بياض الوجه ورقته وجماله.

ثم رفعت سيدة يد بيضاء، طويلة الأصابع، مطلية الأظافر بأكثر من لون، ولها سحابة أرجوانية اللون في وجهها:

ستفقد الكاميرات قيمتها، ولن يكون للصور أي معنى؛ فلن يعرف أحد مَن هؤلاء الذين يظهرون في الصور؛ فالجسم والشعر والملابس لا يمكن أن تكون هوية لصاحبها، والسُحب تتشابه في هيئتها وألوانها.

ثم رفعت سيدة يدها التي بدت متغضنة ظاهرة العروق، مما يدل على أنها سيدة كبيرة في السن، ترتدي حجاب يلف رأسها، وذات سحابة بيضاء في المنتصف، رمادية على الجانبين:

سيجد الكذب بيئة صالحة للانتشار والتفشي؛ فلن يعرف أحد إذا كذبت عليهم بشأن سنك أو وظيفتك أو شكلك أو ابن مَن أنت.

ثم رفع رجل أبيض الشعر، أسود السحابة، يدًا متيبسة:

قـد يظهـر لنـا أي شـخص ويقـول أنـا المسـؤل الفلانـي، أو أنـا الطبيـب الفلانـي، ومَـن سـيكون بإمكانـه إثبـات صحـة مـا يقـول؛ قد يحل أي شـخص مـكان مَـن يشـبهه فـي الجسـد... وسـتُصبح الجريمـة أكثـر تعقيـدًا، وإثبـات الجانـي مـن أصعـب مـا يكـون.

قـال الجميـع كل مـا يمكـن قولـه؛ ووجـدت أنـه لـم يكـن هنـاك شـيئًا آخـر يمكـن أن يُقـال؛ لـذا لـم أرفـع يـدي، ولـم أقـل شـيئًا.

فـي نهايـة هـذا الحلـم الطويـل، تـم تحديـد أننـي أنـا المريـض رقـم صفـر الـذي نشـر هـذه اللعنـة؛ أمطرونـي بالأسـئلة، وأخذونـي لبيتـي، وفتشـوه جيـدًا؛ بعثـروا كل مـا فيـه، وقلبـوا كل الأشـياء رأسًـا علـى عقـب... وكانـوا يُمسـكون كل شـيء ويُلوحـون بـه فـي وجهـي ويسـألون: (هـل هـذا هـو السـبب؟ هـل هـذا هـو السـبب؟)... ملابسـي، كتبـي، أخذيتـي، أدواتـي الشـخصية، صورتـي مـع أبـي، اسـمي المرسـوم بخـط الأسـتاذ مينـا، خطـاب تـاج وصناديقـه، مذكـرات مصبـاح7 وسـاعته وقميصـه.

اسـتيقظتُ مـن هـذا الحلـم (الكابـوس) وأنـا ألهـث بشـدة، وأتصبـب عرقًـا... إنهـا لمصيبـة لـو كان هـذا وبـاء قـد يصيـب الجنـس البشـري... ذهبـت بسـرعة وأخرجـت ميـراث تـاج؛ الصناديـق، والمذكـرات، والخطـاب، وكل مـا تركـه لـي... تـرى هـل كان هـذا الحلـم بـه علامـات تُخبرنـي عـن سـبب مـا أنـا فيـه؟ هـل هـذه الأشـياء التـي هـي مخلفـات لعنـة قديمـة هـي التـي تفعـل كل هـذا بوجودهـا معـي؟

لـم أسـتطع أن أُجـزم بـأي شـيء، ولـم يكـن فـي مقـدوري التخلـص مـن ميـراث تـاج الـذي تركـه لـي... فأعـدتُ كل شـيء لمكانـه، وقـررتُ أن آخـذ بنصيحـة الأسـتاذ مينـا وأذهـب لطبيـب نفسـي؛ فقـد يكـون العـلاج لديـه... وأخـذتُ أُطمئـن نفسـي وأقـول لهـا: "إنـه مجـرد حلـم، والنـاس كلهـا فـي أمـان مـن حولـي، ولا أحـد قـد اختفـى وجهـه غيـري؛ هـي فقـط مخـاوف مـن عقلـي الباطـن تحولـت لهـذا الكابـوس الطويـل".

6

بعـد تخرجـي أنـا وصديقـة دراسـتي المقربـة "وجـدان" مـن كليـة الهندسـة قسـم الهندسـة المعماريـة؛ عملنـا معًـا فـي مكتـب والدهـا المهنـدس المعمـاري؛ كانـت أسـعد أيـام حياتـي فـي العمـل، وقتهـا نبـض قلبـي بالحـب للمـرة الثانيـة، تجـاه رجـل مكتمـل الرجولـة، مكتمـل المشـاعر... وكل مـا كان يخيفنـي فـي هـذا الحـب هـو أن الحبيـب والـد صديقتـي الوحيـدة.

بعـد عـدة أسـابيع مـن بدايـة حياتـي العمليـة السـعيدة، اسـتيقظتُ علـى صـوت رسـالة مـن رقـم مجهـول علـى الموبايـل؛ فتحتهـا فوجـدت هـذه الرسـالة (صوتـكِ يشـبه مقطوعـة موسـيقية... تعـزف كلماتهـا علـى جـدران القلـب)؛ نظـرتُ للرقـم الـذي أرسـل هـذه الرسـالة، لكنـي لـم أكـن أعرفـه، مجـرد رقـم مجهـول، ربمـا صاحبـه أخطـأ فـي إرسـال هـذه الرسـالة؛ لكنهـا علـى كل حـال رسـالة مبهجـة، صنعـت لـي صباحًـا جميـلًا... وعندمـا خرجـت مـن البيـت للذهـاب للعمـل، كان سـامح فـي انتظـاري أمـام المبنـى بابتسـامة أكبـر مـن المعتـاد، وظـل يسـير بجـواري حتـى ركبـت تاكسـي وأنـا أسـأل نفسـي: "تـرى، هـل هـو صاحـب الرقـم المجهـول الـذي أرسـل لـي رسـالة الغـزل الصباحيـة التـي تلقيتهـا اليـوم؟".

بعـد أسـبوع وأنـا عائـدة مـن العمـل رأيـت سـامح علـى السـلم، نظـر لـي ولـم يقـل شـيئًا، وبعـد قليـل وجـدتُ رسـالة جديـدة مـن الرقـم المجهـول يقـول فيهـا (نظرتـكِ تشـبه شـمس؛ تُذيـب ثلـوج البعـاد)... كـم أنـت شـاعر أيهـا الغريـب، وكلماتـك بلسـم... لـم يكـن لـديّ فضـول لأعـرف مَـن هـذا الـذي يُرسـل لـي هـذه الكلمـات الجميلـة، ليكـن سـامح أو ليكـن مَـن يكـون، يكفـي أنـي أسـتمتع بهـا، وأتمنـى أن تسـتمر هـذه الرسـائل حتـى وإن كانـت عـن طريـق الخطـأ.

بعد هذه الرسالة المسائية الجميلة التي عدلت من مزاجي كثيًرا؛ قمت بعمل عشاء خفيف وشهي، أومليت بالشوفان؛ خفقت بيضتان، وأضفت لهما شوفان، فلفل ألوان، ملح، فلفل، بقدونس ثم أنضجتهم على نار هادئة، وفي النهاية وضعت على وجه الأومليت شرائح زيتون؛ وأصبح طبق العشاء لوحة فنية جميلة، قمت بتصويرها قبل أن ألتهمها.

استمرت هذه الرسائل الجميلة تأتيني كل أسبوع أو أسبوعين من ذلك الرقم المجهول، وفي صباح أحد الأيام بينما أنا أقف في الشارع في انتظار تاكسي، وبجواري يقف سامح؛ سمعتُ صوت رسالة جديدة على الموبايل، فنظرت إلى سامح باندهاش، لكنه لم يكن يحمل أي تليفون في يده، إذًا فمن المؤكد أنه ليس هو صاحب هذه الرسائل، أخرجت الموبايل وقرأت الرسالة (ابتسامتكِ هي الحد الفاصل بين زُرقة البحر وزُرقة السماء).

وقعت في حيرة شديدة ممَن عساه قد يكون صاحب هذه الرسائل، إنه ليس سامح، فمَن إذًا؟... من المستحيل أن يكون أستاذ مينا أو أستاذ محمد إبراهيم، هل من الممكن أن يكون دكتور رضا؟... قمت بالاتصال بالرقم المجهول لكن لم يكن هناك أي رد على اتصالي... في المساء عاودت الاتصال مرة أخرى، فتح الخط لكن لم أسمع أي صوت على الطرف الآخر... قررت أن أتجاهل كل هذا، ولا بد أن الأيام ستكشف لي عن صاحب هذه الرسائل.

في الأشهر الأولى من العمل تقدمت بخطوات واسعة وثابتة لإثبات أنه رغم أني حديثة التخرج إلا أني أستحق هذا المكان، وأثنى عليّ كبّار المهندسين بالمكتب؛ كنت أكثر نجاحًا من وجدان، ولديَّ قدرة أعلى على التعلم بسرعة، وشجاعة أكبر على أخذ المسؤلية فوق عاتقي.

ثـم بـدأت ألاحـظ أن والـد وجـدان يولـي ناحيتـي اهتمامًـا خاصًـا... فـي اجتماعاتنـا الصباحيـة ومناقشـات المشـروعات الجديـدة، كان لـي النصيـب الأكبـر مـن نظراتـه وأسـئلته؛ رغـم أنـي الأصغـر سـنًا مـن بيـن الجميـع، والأقـل خبـرة... هـل مـن الممكـن أن يكـون هـو صاحـب الرسـائل التـي تأتينـي مـن الرقـم المجهـول؟... غيـر معقـول، فأنـا فـي عمـر ابنتـه، بالإضافـة إلـى أنـه شـخص عملـي، ولا أُصـدق أنـه قـد يفعـل هـذا.

فـي إحـدى الأيـام كنـت فـي مكتبـه لأُطلعـه علـى بعـض اللوحـات؛ فقـال لـي:

فراق، أنتِ تشبهين زهرة.

ابتسـمتُ بفـرح طفولـي، وسـعدتُ كثيـرًا بتشـبيهه لـي بزهـرة، كانـت المـرة الأولـى التـي يفعـل فيهـا أحـد هـذا ويشـبّهني بالزهـور، لا بـد وأننـي فـي نظـره نضـره وعطـره... بعدهـا كنـت أفكـر كثيـرًا فـي أنـواع الزهـور، أي زهـرة هـذه التـي يُشـبّهني بهـا؟ هـل أنـا زهـرة أوركيـدا بيضـاء، أم زهـرة عصفـور الجنـة؟ ربمـا كنـت زهـرة نرجـس، ليتنـي أكـون زهـرة توليـب.

فـي البدايـة كنـت أراه اهتمامًـا عاديًـا مـن صاحـب المكتـب بموظفـة جديـدة حديثـة التخـرج ومملـوءة بالحمـاس للعمـل وللحيـاة؛ ثـم انتبهـت إلـى أنـه لـم يكـن كذلـك... نظراتـه، كلماتـه، مراقبتـه لتحركاتـي أحيانًـا، اختـلاق الأسـباب للحديـث معـي، وأخيـرًا تصريحـه لـي بالحـب.

كنـا فـي آخـر يـوم فـي الأسـبوع، ولـم تكـن وجـدان قـد جـاءت للمكتـب فـي ذلـك اليـوم، وبينمـا أنـا أسـتعد للانصـراف، وجدتـه يطلـب منـي الانتظـار قليـلاً كـي يسـألني عـن بعـض اللوحـات؛ جلسـت أمامـه وفـي يـدي لوحـة لأحـد المبانـي التـي انتهيـتُ مـن رسـمها فـي ذلـك اليـوم؛ فردتهـا أمامـه كـي أعرضهـا عليـه، لكنـه طواهـا مـرة أخـرى ونظـر مباشـرةً فـي عينـيّ:

فـراق، كمـا تعرفيـن أنـا لا أحـب المقدمـات الطويلـة، ولا الـدوران حـول

المواضيع... باختصار أنا مُعجَب بكِ وأريد الزواج منكِ.

كانت جملة واحدة، لكنها حملت الكثير من الأشياء، جائت مفاجِئة ومباشِرة... ارتبكت وتلعثمت؛ حاولت أن أقول شيئًا لكن جاءت كلماتي غير واضحة وغير مفهومة:

لكن أنا، وجدان... الـ ...

لا أريد منكِ إجابة فورية؛ خذي الوقت الذي تريدينه في التفكير؛ يمكنكِ أن تذهبي الآن إذا أردتِ.

وبالطبع كنت أريد؛ الموقف كان مفاجئًا وأكبر من قدرتي على التصرف والرد، أو حتى التفكير في شيء؛ لذا فقد انسحبت من أمامه دون كلمة واحدة، وخرجت من المكتب وأنا في حالة غير التي دخلته فيها... كنا في نهاية الأسبوع لذا كان لديّ يومين أجازة كاملين للتفكير كما يحلو لي؛ ظللت طوال اليومين أفكر في هذا العرض الذي وجدته فجأة أمامي؛ هل أقبل، هل أرفض، أم ماذا أفعل؟... سألت نفسي: "هل أحبه؟"؛ ووجدت أني مُعجَبة بشكله وبشخصيته منذ المرة الأولى التي رأيته فيها وأنا طالبة في الكلية، عندما ذهبت مع وجدان لمنزلهم؛ كنت أراه شيء لامع وبعيد، نجم في سماء لا يمكن أن تصل إليها أيدي فتاة ضعيفة فقيرة مثلي، ومازلت حتى اليوم أراه هذا النجم البعيد، فلماذا يحاول الاقتراب هكذا؟

سألت نفسي السؤال الأهم: "هل الإعجاب وحده كافي للزواج؟"؛ وأجبت نفسي بصراحة: "أعتقد لا، لكنه بداية طريق ناجح للحب"؛ ثم سألت نفسي مرة أخرى: "هل يمكنني أن أحبه؟"؛ وكانت الإجابة "نعم، لو أعطيتُ قلبي وعقلي فرصة للتفكير فيه"... أما عن فارق العمر؛ فلا أجد أنه مشكلة بالنسبة لي... لكن ماذا عن ماضيَّ الذي لا يعرفه؟ هل سيقبل أن يتزوجني عندما يعرف أني بنت حفار قبور، تربيت في المقابر، وخرجت للدنيا منها... وماذا أيضًا عن صديقة

عمري وجدان؛ هل ستتقبل أن أتزوج من والدها؟ كان هذا هو الجزء الأصعب في الحكاية كلها.

طحنتني الأسئلة، واشتعل رأسي بالتفكير، ولم أكن متأكدة من شيء، ولا أعرف كيف ستكون خطوتي القادمة، فلجأتُ لإعداد وجبة طعام جديدة؛ أُخفف بها الضغط المتزايد على عقلي وقلبي، فالطعام هو طريق الهروب الذي ألجأ إليه عندما تكثر الضغوط من حولي أو في داخلي... أحضرت أحد كتب الطبخ التي لديّ، واخترتُ منه طبق (دجاج بالجبن والأعشاب)... وضعت كل المكونات أمامي كما هو مذكور في الكتاب، ثم اتبعت الطريقة بالخطوات حتى أصبح لديّ وجبة عشاء لذيذة؛ وضعتها في طبقين وذهبت لأتناولها مع أستاذ مينا، وآخذ رأيه في موضوعي هذا:

خير يا شروق؛ لا تأتين ومعكِ طعام إلا وكان هناك موضوع ما يشغلكِ أو يحيركِ.

بالفعل يا عمو مينا، أنا في حيرة كبيرة وأريد نصيحتك.

جلسنا نتناول الطعام، وحكيت له الموضوع بكل ملابساته، وعرضت عليه خوفي وحيرتي، وكيف أني نظرت للموضوع من كل مساقطه الرأسية والأفقية والجانبية؛ ومازلتُ لا أعرف كيف يمكنني رسمه كي أضعه في لوحة نهائية مقبولة... فقال لي باختصاره وحكمته المعتادة:

لا تتسرعي بالرفض ولا بالقبول؛ أعطي قلبكِ فرصة كي يقرر.

بالفعل لم أمنحه ردًا سريعًا، وهو لم يتعجل قراري؛ ومع الأيام وجدتُ أنه مثال جيد لحبيب مثالي؛ فتركتُ نفسي أحبه، ووجدتُ قلبي ينجذب إليه... وكأنه قد شعر بهذا، فترك لي في إحدى الأيام على مكتبي ظرف خطاب به دعوة للعشاء في مطعم راقي؛ ترددت في البداية لكني قررت أن أذهب... جائتني دعوته يوم الخميس،

وموعد العشاء مساء الجمعة؛ وقبل أن يخرج من المكتب وقف أمامي وقال بابتسامته الساحرة: "لا تتأخري"... وهززت رأسي بالموافقة، دون كلمة واحدة، دون حرف واحد.

عدتُ للمنزل، وأنا أشعر بسعادة خفية، تنبع من نقطة صغيرة داخل قلبي، ثم تضخها الشرايين مع الدم لكل أنحاء جسمي... أخرجت كل ما لديّ من ملابس؛ وأخذت أُفاضل بينها فيما قد يصلح للقاء كهذا، لحبيب كهذا... ولم يكن بها شيئًا يصلح على الإطلاق... أمسكتُ بالفستان الأزرق الذي أحضره لي يوم أن ذهبت لحفل انتقالهم للفيلا الجديدة، أصبح الفستان أصغر مقاسًا عليّ الآن، وأنا أمسكه بيديّ، مرت في رأسي كل أحداث تلك الليلة الجميلة التي ارتديته فيها، ترى هل كان يحبني في ذلك الوقت لذلك أحضر لي هذا الفستان؟ لا، لا غير معقول... الحقيقة أني لم أعد أُدرك ما هو المعقول وما هو غير المعقول في دنيانا العجيبة هذه.

قررتُ شراء فستان جديد، وحذاء جديد، لحياة جديدة، لحب جديد؛ وفي الصباح التالي، خرجتُ بغرض هذه المهمة؛ وعدتُ بأجمل فستان اشتريته في حياتي، وأكثر حذاء مرتفع عن الأرض أقوم بشراءه... وقبل الموعد بوقت كافي، ارتديتُ الفستان والحذاء، وأخذت أسير بهما في المنزل كتدريب عملي على مظهري الجديد، ثم ارتديتُ بعض الحُلي مما أمتلكه، ووضعتُ بعض مساحيق الزينة البسيطة، وأصبحت جاهزة تمامًا لهذا اللقاء الأول من نوعه في حياتي، ثم تشجعت وذهبت؛ بصورة غير عملية ذهبت، بقلب ينبض بالحب ذهبت.

7

لـم أكـن أعـرف أي طبيـب نفسـي، وظـل يُلـح علـيّ اقتـراح أسـتاذ مينـا فـي أن أذهـب لاستشـارة طبيـب نفسـي؛ لـذا فقـد بحثـت علـى الانترنـت عـن طبيـب يكـون قريبًـا مـن المنطقـة التـي أسـكن فيهـا، بشـرط أن أشـعر براحـة تجـاه اسـمه، كانـت هـذه طريقتـي فـي الاختيـار أحيانًـا، طريقـة غيـر علميـة وغيـر منهجيـة، لكنـي أحبهـا فـي بعـض الأوقـات... وجـدت القليـل مـن الأطبـاء النفسـيين بالمنطقـة التـي أنـا فيهـا، طبيبـان وطبيبـة... قارنـت بيـن أسـماء الثلاثـة، ثـم اختـرت الاسـم الـذي بـدا مريحًـا لـي عندمـا قرأتـه، بـدا أيضًـا فريـدًا مثـل حالتـي... وكان مـن نصيـب الطبيبـة (فريـدة فـادي)، أعـدتُ قرائتـه مـرة أخـرى بصـوت عالـي، واستحسَـنَت أذنـايّ كل مقاطـع الإسـم، وقلـت لنفسـي: "لا بـد وأن شـخصيتها مريحـة مثـل اسـمها"، فهكـذا يجـب أن يكـون الطبيـب النفسـي، صاحـب روح تجـذب إليـه كل مَـن يـراه، حتـى يفتـح لـه المريـض خزائـن حكاياتـه دون خـوف ودون حواجـز... أعتـرف أنهـا طريقـة غريبـة فـي الاختيـار أتبعهـا أحيانًـا، تجعلنـي أمشـي وراء قلبـي فـي العديـد مـن الطُـرق، لـم أمـشِ وراء وجهـي فـي طريـق واحـد مـن قبـل؛ وهـا هـو ذا يجعلنـي أفعـل ذلـك رغمًـا عنـي.

قمـتُ بالاتصـال بعيـادة هـذه الطبيبـة النفسـية، وتـم تحديـد موعـدًا لـي فـي السـابعة والنصـف مسـاءً... لـم أكـن أتوقـع أن حجـز الميعـاد سـيكون فـي نفـس اليـوم، لكـن هـذا مـا حـدث؛ فأخـذتُ أسـتعد بالكلمـات التـي يجـب أن أقولهـا لوصـف حالتـي الغريبـة هـذه، بعزيمـة قويـة وأمـل فـي الشـفاء (إن كان هـذا مرضًـا) يجـب أن أذهـب.

لبقيـة اليـوم وأنـا أفكـر فـي احتماليـة أن يكـون هـذا مرضًـا، لكـن إن لـم يكـن كذلـك، فهـل مـن الممكـن أن يكـون بسـبب نقـص فيتاميـن معيـن: فيتاميـن أ أو ب أو د أو أيًـا كان... أو ربمـا فيتاميـن جديـد مـن

نوعـه لـم يعرفـه الطـب بعـد، ونقصـه يـؤدي إلـى تحـول ملامـح الوجـه إلـى ملامـح سـحابة.

السـماء اليـوم محتشـدة بالغيـوم، لـذا فقـد وقفتُ فـي النافـذة، وأخذتُ أواصـل النظـر إليهـا، هـذه التـي تشـبه وجهـي لكـن بأحجـام مختلفـة، وحريـة أكبـر فـي التنقـل مـن مـكان لآخـر فـي سـماوات متسـعة... أتخيلهـا أحيانًـا وقـد تحولـت لوجـوه، وجـوه كبيـرة تسـبح فـي السـماء، وهـي علـى وشـك أن تهطـل متسـاقطة علـى الأرض.

ربمـا كانـت هـذه السـحب كائنـات حيـة، تسـمع وتتنفـس، تشـعر بـالأرض العطشـى فتذهـب لتسـقيها... إنهـا تشـبه الأسـماك لكنهـا تسـبح فـي بحـار أخـرى مرتفعـة تسـمى السـماوات، أسـماك لا يأكلهـا البشـر لكـن تأكلهـا الأرض، فالسُـحب هـي بمثابـة طعـام لـلأرض... ليـت فـي اسـتطاعتي اصطيـاد بعـض السُـحب والاحتفـاظ بهـا بالقـرب مـن سـقف منزلـي، حتـى تؤنـس وحـدة وجهـي.

لـم تكـن عيـادة الطبيبـة النفسـية مزدحمـة، ولـم أنتظـر غيـر دقائـق قليلـة.

حجـرة الطبيبـة كانـت متسـعة وأنيقـة، مكتـب مـن الخشـب الـزان البنـيّ، وكراسـي بنّيـة اللـون أيضًـا، لوحـة لمنظـر طبيعـي خـلاب، مكتبـة بهـا كتـب ضخمـة تبـدو أنهـا كتـب علميـة، وهنـاك أكـواب شـفافة بهـا شـموع متناثـرة بيـن الكتـب، وتسـائلت بينـي وبيـن نفسـي عنـد رؤيتهـا عمَـن يُنيـر أكثـر: الكتـب أم الشـموع؟... الطبيبـة التـي اخترتهـا لأن اسـمها جذبنـي مـن خـلال تصفحـي علـى الانترنـت كانـت جميلـة، ذات عيـون رماديـة اللـون، وشـعر أصفـر، ترتـدي ملابـس أنيقـة، وتنظـر علـى شاشـة كمبيوتـر أمامهـا... تبـدو وكأنهـا فـي منتصـف الثلاثينـات مـن عمرهـا، شـكلها مريـح كمـا توقعـت، ولا أعـرف شـيئًا عـن تاريخهـا العلمـي فـي الطـب النفسـي... أشـارت لـي بالجلـوس وهـي تكتـب اسـمي علـى روشـتة

الكشـف ثـم قالـت لـي:

بشمهندسـة فـراق، أنـا أقـوم بتسـجيل بيانـات كل الحـالات التـي تأتينـي علـى الكمبيوتـر، وكذلـك جرعـات العـلاج التـي سـيتلقونها، ونتائجهـا عليهم فيمـا بعـد، وكل مـا ينتـج مـن تطـور للحالـة، ومـا تصـل إليـه مـن نسـب شـفاء... هـذا يسـاعدني كثيـرًا فـي كل مـرة تأتيـن فيهـا أن أسـترجع بدقـة كل تاريـخ الحالـة.

وهو كذلك.

ثـم توجهـت ناحيتـي بالسـؤال الافتتاحـي الـذي لا بـد وأنهـا تبـدأ بـه أسـئلتها لـكل مريـض يأتـي إليهـا:

ما هي المشكلة التي تعانين منها؟

الحقيقـة هـي مشـكلة غريبـة بعـض الشـيء، ولا أعـرف حتـى إذا كان لهـا تفسـيرًا علميًـا أو لا؛ فمنـذُ حوالـي ثلاثـة أسـابيع، وأنـا لا أسـتطيع أن أرى وجهـي فـي المـرآة.

وماذا يظهر لكِ مكان الوجه عندما تنظرين في المرآة؟

يظهر ضباب... بمعنى أدق تظهر سحابة.

فكـرت لثوانـي قليلـة، ودون أن تطلـب المزيـد مـن التفاصيـل، أعطتنـي تعريفًـا مبدئيًـا لهـذه الحالـة التـي أعانـي منهـا:

تبـدو هـذه وكأنهـا حالـة (Denial)، رفـض... هـل ترفضيـن واقعًـا معينًـا ولا تريديـن رؤيتـه فـي حياتـك؟

أنـا لا أحـب اسـمي (فـراق)... ومؤخـرًا قمـتُ بتغييـره وأعطيـت نفسـي اسـم (شـروق)، لـم أسـتطع تغييـره فـي الأوراق الرسـمية، لكنـي أخبـرت كل المحيطيـن بـي بالاسـم الجديـد.

ولماذا لا تحبين اسمكِ؟ أراه اسمًا جميلًا و...

وبحثـت فـي رأسـها لعـدة ثوانـي عـن صفـة أخـرى تضيفهـا لاسـمي الـذي ربمـا تسـمعه للمـرة الأولـى فـي حياتهـا؛ ثـم قالـت:

ونادر.

لا أحب اسمي لعدة أسباب، أولها هو أن أمي ماتت وهي تلدني، وأبي هو الذي أعطاني هذا الاسم، لأنه بمولدي فارق والدتي، وفارق حلمه في أن يكون لديه ولد... ثم فيما بعد ارتبطتُ عاطفيًا بأكثر من شخص وماتوا جميعًا؛ فوجدتُ أن اسمي هو سبب كل هذا الفراق الذي يحدث لي.

ولماذا تعتبرين أنهم ماتوا بسبب اسمكِ؟ هل أنتِ متزوجة الآن أو لديكِ أطفال؟

ثم نظرت في إتجاه يدي اليسري فقطعت نظراتها بقولي:

لا، لكن أحدهم مات قبل أن أرتبط به بفترة قصيرة، كان والد صديقتي ويحبني بشدة.

والد وصديقتك؟!... كم كان عمر والد صديقتكِ عندما أراد الارتباط بكِ ؟

يقترب من الستين.

لكنها ليست إختيارات صحيحة أن ترتبطي بشخص في عمر والدكِ... أعرف حالات أصعب من حالتكِ، شابات تزوجن من رجال في عمر آبائهن، ثم مات هؤلاء الأزواج بعد عدة أشهر، وفي حالة منهم بعد عدة أيام من الزواج؛ وتركوهن أرامل... هل كنتِ تتمنين أن تكوني إحدى هذه الحالات؟

لم أرد بشيء، ولم أعرف إذا كنت أتمنى حدوث هذا لي أو لا، ولم تسألني هي عن تفاصيل أكثر عن هذه القصة التي ذكرتها باختصار، لم تتوقف أيضًا عند اسمي الجديد (شروق)، لكنها سألتني عن أخواتي البنات اللاتي لا أعرف عنهن شيئًا.

وماذا عن إخوتكِ؟ هل لديك إخوة؟

لديّ أخوات بنات، لكني لا أعرف عنهن شيئًا.

كيف هذا؟ ألا تتحدثين معهن وتزورينهن؟

غصت بعينيّ في تفاصيل لوحة المنظر الطبيعي المواجهة لي وأنا أجتر الماضي الذي كان:

نحن سبعة بنات، أنا البنت السابعة، وكانت كلما تزوجت واحدة من أخواتي، يقول لها أبي ألا تعود إلى ذلك المكان مرة أخرى إذا استطاعت... كنا نعيش في المقابر، وبالفعل ذهبوا ولم يعودوا، وبقيتُ أنا مع أبي حتى أنهيت الثانوية العامة، وحصلت على مجموع كبير، ولم يكن في استطاعته أن يحقق لي حلمي بالالتحاق بكلية الهندسة، وفيما بعد ساعده طبيب شاب في المستشفى الذي كان يعمل فيها في أن يجد لي عملًا في إحدى المكتبات، ثم مات أبي وساعدني هذا الطبيب في استكمال تعليمي الجامعي، عقد معي اتفاقًا غريبًا من نوعه، وهو أن أكتب له خطابات في مقابل مصاريف تعليمي، ثم مات وترك لي شقته لأستأجرها بدلاً منه وأترك المقابر لأعيش فيها، ترك لي أيضًا ملابسه وكتبه وكل شيء كان له ومبلغ من المال أستطيع به مع عملي في المكتبة أن أستكمل سنوات تعليمي.

سمعتني دون مقاطعة وهي تشرب ببطء كوب ماء كان موضوعًا على مكتبها... لكنها لم تسألني عن تفاصيل أكثر عن تاج وقصتي معه، والتي ذكرتها لها باختصار شديد، أيضًا تمنيتُ لو أنها تقول لي ابحثي عن إخوتكِ واعرفي أخبارهن فقد يعيد لكِ هذا ملامح وجهكِ الضائعة؛ لكنها لم تقل شيئًا، وشعرتُ بأنها تحاول إنهاء اللقاء الذي ربما طال في نظرها وهي تقول:

من الواضح أنكِ عانيتِ كثيرًا في حياتكِ، وكما قلت لكِ، فهذه الحالة التي لديكِ هي حالة رفض واضحة.

أيضًا أنا لا أستطيع رؤية وجهي حتى في الصور.

وماذا عن وجوه باقي الناس معكِ في نفس الصور؟

أرى كل الوجوه الأخرى في الصور، ووجهي أنا يظهر على هيئة سحابة لها درجة لون مختلفة في كل صورة... هل رأيتِ حالة مثل حالتي هذه من قبل؟

بهذا الشكل الذي تقولينه لا، لكن الرفض قد يأتي بأشكال أخرى مختلفة، مثلاً كأن ترفض العين أن ترى رغم أنه لا مرض بها، أو أن ترفض الأذن أن تسمع وهي سليمة... حدثيني يا فراق عن حالتكِ النفسية، هل تعانين من القلق أو الاكتئاب؟ هل تنتابكِ نوبات من البكاء مثلًا؟

لا، لا يمكن أن أقول أن لديَّ شيء من هذه الأعراض، لكني شخص غير اجتماعي، لا أخرج كثيرًا، وليس لي أصدقاء، أقرأ الكثير من الكتب، وأُشاهد الأفلام، هذا كل ما أشغل به نفسي... الوحيد الذي أتواصل معه باستمرار هو جاري عمو مينا، وهو الوحيد الذي أخبرته بهذه المشكلة التي لديَّ؛ ونصحني بأن أستشير طبيب نفسي.

ماذا عن شهيتكِ في الأكل؟

عادية، لكني أُكثر من شرب الشاي.

هل لديكِ أرق أو إضرابات في النوم أو تحلمين بكوابيس؟

أصبحت أسئلتها مهنية أكثر منها نفسية، لكني كنت أرد عليها كلها:

لا، لكني رأيتُ يومًا حلمًا غريبًا، وعندما استيقظتُ من النوم وجدتُ هذه السحابة مكان وجهي.

لم تسألني عن تفاصيل هذا الحلم، وبدت غير مهتمة بمتابعة الحوار أكثر من هذا؛ ثم أخذت تكتب بعض الأدوية على شاشة الكمبيوتر، ثم في الروشته التي أمامها وهي تقول:

ستأخذين هذه الأنواع من الأدوية بهذه الجرعات التي كتبتها لكِ، وأراكِ مرة أخرى بعد ثلاثة أسابيع.

نظرت لأسماء الأدوية الثلاث التي كتبتها، كان خطها على الورقة واضحًا ويمكن قرائته بسهولة على غير عادة الكثير من الأطباء... تمنيتُ لو أنها تعطيني بدلًا من هذه الأدوية ممحاة، أمحو بها السحابة فتظهر ملامح وجهي المختبأة خلفها.

سألتها وأنا أنظر لأسماء هذه الأدوية التي لا أعرف عنها شيئًا:

وهل هذه الأدوية لها تأثير على المخ؟

لا يوجد شيء لا يقوم بالتأثير في الجسم بدرجةٍ ما، لكن لا تخافي، فأنا قد كتبتُ لكِ تركيزات أقل منها، لكنها ستساعدكِ في تخطي هذه الحالة.

أخذتُ الروشتة منها وشكرتها، ثم خرجت من العيادة وأنا أسأل نفسي: "هل هذا هو كل ما لدى الطب النفسي؟ حوار لا يتجاوز الثلاثون دقيقة، وبعض الأدوية التي أخشى أنها تقوم بالتأثير على المخ؟"

في الطريق للمنزل طلبت من نفسي ألا أحكم هكذا سريعًا على هذا اللقاء، فربما كان الطب النفسي لا يصلح لعلاج حالة مثل حالتي هذه الفريدة من نوعها، وقد أكون قد أخطأت في طرق الأبواب التي يجب عليّ أن أطرقها... شعرتُ بأني تحدثت أمام الطبيبة كثيرًا عن نفسي، وعن حياتي الماضية، كما لم أفعل من قبل مع أحد أراه للمرة الأولى في حياتي، قلبي اليوم كان ثرثارًا أكثر من اللازم، لم يترك وجعًا إلا وباح لها به... هل كنتُ أعتبر نفسي مريضة؟ ويجب عليّ أن أبوح حتى أشفى... وهل كل ما قلته من الممكن أن تكون هي أسباب مرضي؟ ربما، ولما لا؟

في صباح اليوم التالي، وبصحبة كوب كبير من الشاي، جلستُ أبحث من خلال الانترنت عن استخدامات هذه الأدوية التي كتبتها لي الطبيبة؛ فكان الأول كما قال لي الانترنت يُعالج الاكتئاب والتوتر

النفسي وحالات الهلع والقلق والخوف الاجتماعي وتخفيف أعراض الوسواس القهري... وكان الثاني حسب ما وجدتُ في أكثر من صفحة على الانترنت ينتمي لفئة يُطلق عليها اسم مضادات الذهان الغير تقليدية، ويُعالج مرض الفصام الذي يسبب اختلالات في التفكير وبعض الهلاوس البصرية والسمعية، ومرض الاضطراب الثنائي القطب والذي يسبب نوبات من الاكتئاب والهوس، ويعالج التهيج المرتبط باضطراب التوحد... والدواء الثالث والأخير وجدتُ أنه من الأدوية المضادة للاكتئاب ثلاثي الحلقات، يعمل على تنظيم المواد الكيميائية في خلايا الدماغ وتحفيز عمل الخلايا العصبية، ويمنع عمل بعض المواد الكيميائية الأخرى في المخ... وهو يعالج القلق والتوتر وحالات الهلع، وسلس البول عند الأطفال!

كل استخدام من هذه الاستخدامات التي قرأتها عن هذه الأدوية كان كفيلًا بأن يجعلني أحب الحالة التي أنا عليها، وأتعايش معها أيًا كان الشكل الذي ستظهر عليه ملامح وجهي... فأنا لديّ عقل واحد هو رأس مالي في هذه الدنيا، ولا أُريد التأثير عليه لصالح أي عضو آخر من أعضاء جسمي، حتى وإن كان وجهي، رسولي للعالَم من حولي.

بالطبع لم أشترِ هذا الدواء، ولم أذهب لعيادة الطبيبة بعد ثلاثة أسابيع، أو بعد أية أسابيع أخرى.

قررتُ أن أذهب لرؤية عمّة تاج، أحتاج لرؤية شخصية قوية مثلها، كي أستمد منها بعض القوة التي أحتاجها في هذه الحالة التي أمر بها... هي من القلائل الذين لم أطلب منهم بعد أن يستخدموا اسمي الجديد (شروق)، أريدها أن تناديني دائمًا بفراق كما كان يفعل تاج.

قمتُ بالاتصال بها؛ فطلبت مني أن أحضر في أي وقت أشاء، فهي بعد موت زوجها، وزواج كل أبنائها تعيش بمفردها... اشتريت علبة

شـيكولاته وذهبـت إليهـا فـي يـوم جمعـة مشـمس وجميـل، أجلَسـتني معهـا فـي المطبـخ كمـا كانـت تفعـل مـع تـاج، وأعـدَت لـي طعامًـا كان يحبـه، لطعامهـا رائحـة قويـة وحـارة، وكأنهـا تعانقنـي وتتخلـل أنفاسـي... قضيـتُ معهـا عـدة سـاعات جعلتنـي أشـعر بالتحسـن والارتيـاح، أعطتنـي المزيـد مـن القـوة كـي أواجـه الواقـع بـكل مـا فيـه... كنـتُ علـى وشـك أن أخبرهـا بمشـكلتي مـع وجهـي، لكنـي لـم أسـتطع؛ وكأنهـا شـعرت بحيرتـي وقلقـي فسـألتني:

ماذا بكِ يا فراق؟

وكأن لسـؤالها هـذا عينـان تنظـران داخـل روحـي، وأصابـع تُشـير فـي اتجـاه وجعـي... ورغـم هـذا لـم أسـتطع قـول شـيئًا لهـا، فقـط قبلتهـا وذهبـت.

عندمـا عـدتُ للبيـت، وقفـتُ أمـام المـرآة، وأخـذتُ أتطلـع للسـحابة التـي أراهـا، وسـألتُ نفسـي: "لمـاذا يضايقنـي اختفـاء وجهـي؟ المهـم أن الآخريـن يرونـه، مـاذا ينقـص منـي إذا اسـتطعت رؤيتـه أو لـم أسـتطع؟ هـل إذا عـادت ملامحـي سـأُصبح أكثـر بشـرية ممـا أنـا عليـه؟ بالطبـع لا، لـم يتغيـر فـيّ شـيء غيـر وجهـي، فليكـن سـحابة أو بحـر، سـماء أو أرض، فأنـا كمـا كنـت، وهكـذا سـأظل".

وبمنتهـى التحـدي، نظـرت للسـحابة أمامـي فـي المـرآة، وقـررتُ أنـه لا شـيء يمكـن أن يهزمنـي، سـأمزق الخـوف وأُلقـي بـه مـن النافـذة، سأرسـم صـورة بالألـوان لحيرتـي وأحرقهـا حتـى لا يتبقـى مـن الحيـرة شـيئًا... وسأحشـو وسـادتي كل ليلـة بالأحـلام الجميلـة التـي أتمناهـا.

8

فـي مطعـم لبنانـي هـاديء، ذو ديكـور راقـي، كان لقائـي الأول مـع والد وجـدان... وبمجـرد أن جلسـنا علـى المائـدة، قـال لـي بنفـس الابتسـامة السـاحرة التـي لا أعـرف مـن أيـن اكتسـبها:

هل أعتبر قبولك لدعوة العشاء موافقة؟

بشكل ما نعم، لكني متخوفة من وجدان؛ كيف ستتقبل الأمر؟

لا تخافـي، وجـدان بنتـي، وأنـا ربيتهـا علـى الحريـة فـي الاختيـار لهـا ولـي ولـكل مَـن حولهـا.

هناك شيء آخر... أنت لا تعرف شيء عن ماضيَّ.

أنا رجل عملي، أهتم بالحاضر، ولا تشغلني جثة الماضي في شيء.

لكن يجب أن تعرفه.

كلـي آذان صاغيـة، لكـن دعينـا نطلـب العشـاء أولًا... مـاذا تفضليـن مـن أطبـاق؟

نظرت في قائمة الطعام وملئتني الحيرة، فقلت له:

صراحةً، هذه أول مرة أذهب فيها لمطعم لبناني.

إذن دعيني أختار أنا الطعام؛ فأنا من عشاق الأكل اللبناني.

أجبتـه بابتسـامة رضـا وسـعادة، وبـدأت أرقبـه جيـدًا وهـو يُملـي الطلبـات علـى النـادل الـذي كان يكتـب كل مـا يقـول، ظللـت أنظـر جيـدًا للكلمـات وهـي تخـرج مـن شـفتيه، ولحـركات يديـه، وتعبيـرات وجهـه، للأناقـة التـي تفيـض مـن ملابسـه، ورائحـة العطـر التـي تصلنـي حيـث أجلـس؛ وبـدأت أُغـرَم بـكل هـذا.

كان ينظـر لـي بسـعادة باديـة فـي عينيـه، وكأنـه غيـر مُصـدق أن هـذه الآنسـة الرقيقة التي ترتدي فسـتان هي نفسـها تلك المهندسـة العملية التي ترتـدي باسـتمرار الجينـز، ومُنكفـأة علـى لوحة تقـوم برسـمها أو بتحبيرها.

قطع نظراته وصول النادل الذي أخذ يضع الطعام على المنضدة، وعندما انتهى أبديت ملاحظة أنه طلب طعامًا أكثر من اللازم؛ فرد عليّ بإحدى ابتساماته... كان الأكل لذيذًا جدًا والصُحبة ألذ... وبعد الأكل بدأت أحكي له حكايتي التي يجب أن يعرفها:

أبي أعطاني هذا الاسم "فراق" لأن أمي ماتت وهي تلدني، وبمجيئي فارقها وفارق معها حلم أن يكون له ولد منها... أنا الابنة السابعة لأبي؛ كل أخواتي البنات تزوجن وانتشرن في البلاد، ولا أعرف عنهن شيئًا، كن يذهبن الواحدة تلو الأخرى دون عودة... بمعنى أدق أنا وحيدة في هذه الدنيا... أبي كان حفار قبور إلى أن أُصيب في ساقه، وتم بترها، ثم عمل بعد ذلك ساعي في إحدى المستشفيات... وأنا وُلدت وتربيت في المقابر... حصلتُ على شهادة الثانوية العامة بمجموع كبير؛ كنتُ أحلم بأن أذهب لكلية الهندسة، لكن لم يكن في مقدور والدي أن يتحمل مصاريف كلية كهذه، أو أية كلية أخرى، لذا فقد بحث لي عن عمل؛ ساعده طبيب شاب في المستشفى التي كان يعمل فيها، ووجد لي عملًا في مكتبة؛ ثم ساءت حالة أبي الصحية ومات، وبقيتُ وحدي في حجرتنا في المقابر... كان الطبيب الشاب الذي ساعدني في الحصول على عمل يرثى لحالي، وأرادَ بأي شكل أن يساعدني في استكمال تعليمي... عقد معي اتفاقًا غريبًا من نوعه، وهو أن أكتب له خطابات وفي المقابل سيتكفل هو بمصاريف تعليمي في كلية الهندسة... هو اخترع هذه الطريقة ليُشعرني أنه لا يعطيني إحسانًا، بل مقابلًا لما أكتبه... لم يقيدني بأن أكتب شيء معين، فكنت أكتب له كل ما يخطر على بالي: يوميات، ماضي، أحلام، أمنيات، وأشياء أخرى كثيرة... استمتعت بشدة بكتابتي لهذه الخطابات؛ لكنها لم تستمر... خلال عامي الأول في الكلية، كتبت له سبعة عشر خطابًا، كانت من أجمل ما كتبت في حياتي، وستظل...

ثم جاء ليودعني في آخر يوم في الامتحانات؛ لم يقل لي أنه وداع لكني شعرت به.

توقفتُ عن الكلام لأمسح بعض الدموع التي ملأت عينيّ فسألني:

وماذا حدث له؟

مات... هكذا ببساطة، مات، وترك لي في حسابي في البنك الذي فتحه هو باسمي، كل ما أحتاجه من نقود حتى أُكمل تعليمي في الكلية، ترك لي أيضًا منزله الذي كان يستأجره، وأوصى مالك المنزل بأن يجعلني أعيش فيه، وأوصى جاره عليّ، وأوصى حتى أصدقائه وعمّته... ترك لي أيضًا ذكريات حية؛ ظلت تطاردني لأعوام؛ ماضيه، قصته العجيبة، ميراثه من قريته، ملابسه، كتبه، وحتى أحلامه... وضعني وسط كل هذا واختفى.

هل كنت تحبينه؟

نعم أحببته، لم ألتقِ به إلا مرات قليلة؛ لكن الكتابة له جعلتني أتعلق به... ما فعله معي جعلني أحمله في قلبي حتى وهو ميت.

أفهم شعورك هذا جيدًا... أنا أيضًا كان لي حبيبة منذ ما يقرب من سبع سنوات، لم ألتقِ بها مرة واحدة، لكن ظل حبها بداخلي أعوامًا طويلة بعد الفراق الذي أجبرتني الظروف على أن أفرضه على كلينا، هي حبي الأكبر والأجمل... في كل الأحوال الحياة تُنسينا بشكل ما.

نعم هي دائمًا ما تفعل هذا... تُنسينا بشكل ما.

صمتُ قليلًا ثم قلت له:

هذه حكايتي باختصار... ما رأيك بها وبي؟

كما قلت لكِ من قبل... جثة الماضي لا تعنيني في شيء.

وبالنسبة لوجدان؟

دعي هذا الأمر لي... أنا سأتحدث معها عن قريب.

طلب قهوة مرة أخرى، وسألني ماذا أريد، فقلت له: "شاي"، فابتسم وقال:

تُحبين الشاي مثل زهرة.

وهل تشرب الزهور الشاي؟ وأي نوع من الأزهار هذه التي تُشبهني بها؟

سأُخبركِ عنها يومًا ما، لكن ليس الآن.

هل أشبه في نظرك زنبقة أم زهرة لوتس؟ وردة أم أقحوانة؟... الحقيقة يحيرني كثيرًا تشبيهك لي بالزهور، فالزهور تصلح للفرح وللحزن، للصحة وللمرض وللموت... أي الزهور أنا في نظرك؟

ابتسم ولم يرد بشيء، مما زاد من حيرتي وغرقت أكثر في هذه الحيرة، هل أشبه زهرة لأن الزهور تقف عاجزة أمام قاتليها، يقطفونها دون مقاومة منها، ليست طيرًا فتطير بعيدًا، وليست حيوان يمكنه الركض، هل لأني وديعة ولا أستطيع الهروب أو الدفاع يُشبهني بزهرة؟ لكن لي أشواك يمكنني أن أستخدمها إذا اقتضى الأمر... أخرجني من هجوم عقلي المباغت عليّ بقوله:

هل تودين أن تعرفي شيئًا ما عني؟

قل لي ما تريدني أن أعرفه عنك.

أنا لا أحب أن أتحدث كثيرًا عن الماضي أو عن المستقبل، الحاضر هو كل ما يهمني... وكل ما أُريدكِ أن تعرفينه هو أنكِ أصبحتِ شيئًا هامًا في حياتي، وأُريدكِ معي باستمرار.

وهذا يكفيني وزيادة.

أخرج من الجاكيت الذي يرتديه موبايل صغير الحجم، ولاحظتُ أن موبايله موضوع بجواره على المنضدة، بدا أنه يحمل اثنان... نظرتُ إليه وهو يكتب شيء ما على الموبايل الصغير ذاك؛ ثم سمعتُ صوت رسالة تأتيني على موبايلي، فأخرجته من حقيبة يدي، وقد

كانت رسالة من الرقم المجهول يقول فيها (وأنتِ تكفيني وزيادة)... حبست أنفاسي وأنا أنظر لابتسامة شفتيه وعينيه، إذًا كان هو صاحب الرقم المجهول الذي يُرسل لي تلك الرسائل الجميلة، كان يُحبني من قبل أن أعرف... لم أستطع أن أقول شيء وأنا في قلب هذه اللحظة الساحرة التي كنت أحياها.

بعد ذلك اللقاء بدأت ألاحظ تغيرًا في الطريقة التي تتعامل بها وجدان معي؛ تصمت كثيرًا، وعلى غير عادتها تتجنب الحديث معي... آلمني هذا، ولم أكن أعرف ماذا أفعل؛ عرفت منه أنه أخبرها بالموضوع وبما يريد لكنها لم تُعَقب؛ لم تعترض ولم توافق؛ فقط التزمت الصمت والتجاهل؛ كان هذا مؤلمًا على كلينا، لكنه لم يكن عائقًا لعلاقتنا في أن تستمر.

في المكتب كان يُشرف على عملي ولوحاتي بشكل خاص، يُعطيني من خبرته ما لم يعطه للآخرين من حولي، ويُحدثني عن عشقه للفن المعماري، ويُحضر لي كتبًا عنه وعن المهندس العبقري "حسن فتحي"، شيخ المعماريين كما كان يحب أن يُسميه، أعطاني يومًا كتاب "عمارة الفقراء" وطلب مني أن أقرأه... حديثه عن العمارة كان يزيدني حبًا فيها وفيه.

اعتدتُ على رؤيته كل يوم، والاستمتاع بسحر نظراته، وجمال صوته، الذي أصبح مصدر سعادة لقلبي... وكان اليوم الذي يتأخر فيه في الحضور إلى المكتب أشعر بالضيق، وأظل في ترقب منتظرة ظهوره، وبمجرد أن يأتي أشعر وكأن الشمس قد جاءت معه، يُصبح وقتها كل شيء لامع ومضئ، حتى خطوط اللوحات تتراقص سعيدة.

تعددت لقائاتنا وتوطد الحب فيما بيننا... استبدلتُ صورة تاج التي كانت بجوار السرير بصورته، وسجلت الرقم المجهول على الموبايل تحت اسم "حبيبي"، أخيرًا أصبح لي حبيب يمكنني أن أراه

وأتحـدث إليـه وأشـم رائحـة عطـره.

أخذنـي للأوبـرا، المسـرح، السـينما، المعـارض، المتاحـف والمطاعـم؛ تعـددت سـهراتنا، وتعـددت معهـا الفسـاتين والأحذيـة التـي كنت أشـتريها، وأصبحـت حياتـي تمتلـئ بالفـرح والألـوان... تعـددت أيضًـا الهدايـا الجميلة التـي كان يُحضرهـا لـي مـع كل لقـاء؛ سـاعة أنيقـة، أسـورة ثمينـة، قـلادة تركتـه يُحيـط بهـا عنقـي ويلمـس بيديـه رقبتـي.

أخذنـي ذات مسـاء لمـكان سـاحر (Chocolate House)، كانـت ليلـة بطعـم الشـيكولاته، وفيهـا قـال لـي أحبـك لأول مـرة، قالهـا بالأسـبانية (te amo)، أنـا أعـرف أنـه نصـف مصـري، والدتـه أسـبانية، لكنـي لـم أكـن أعـرف معنـى الكلمـة التـي قالهـا لـي... ابتسـمتُ لـه وعلقـت الكلمـة فـي أذنـيّ، وعندمـا عـدتُ للمنـزل، بحثـت عنهـا فـي الانترنـت وعرفتهـا، وفـي اليـوم التالـي تمنيـت أن أقـول لـه بالأسـبانية وأنـا أحبـك كثيـرًا (te amo mucho)، لكنـي عندمـا وقفـت أمامـه لأقولهـا، خرجـت منـي علـى هيئـة صبـاح الخيـر بالأسـبانية (Buenos días).

سـألته فـي إحـدى الأيـام، وأنـا أغـادر المكتـب بعـد يـوم عمـل طويـل ومرهـق:

منذ متى وأنت تحبني؟

من قبل أن أراكِ.

شـعرتُ بأنـه يبالـغ فـي رده هـذا، فالنـاس لا تحـب بعضهـا البعـض قبـل أن تلتقـي، لكنـي اكتفيـتُ بالـرد الغامـض، ولـم أقـل شـيئًا.

كنـت أنـا ووجـدان نتحاشـى الحديـث فـي هـذا الموضـوع، إلـى أن جاء اليـوم الـذي تواجهنـا فيـه؛ قالـت لـي أنهـا لا تعتـرض علـى زواجـي مـن أبيهـا، هـو لـه كل الحـق فـي أن يُحـب ويتـزوج بمَـن يشـاء، لكنهـا تشـعر بـأن هـذا كسـر شـيء مـا فـي حائـط صداقتنـا؛ أحـدث شـرخًا لا تعتقـد أنـه يمكـن ترميمـه... كنـت فـي المقابـل أشـعر بهـذا الشـرخ، وليـس أمامـي

غيـر أن أتعامـل معـه، ولا أحـاول حتـى مجـرد ترميمـه.

وفـي أحـد الأيـام عقـد اجتمـاع طـاريء للجميـع فـي المكتـب، ولـم تكـن وجـدان قـد حضـرت فـي ذلـك اليـوم، الحقيقـة أنهـا تتغيـب كثيـرًا ولا أحـد يقـول لهـا شـيئًا، فهـي بنـت صاحـب المكتـب... فـي ذلـك اليـوم أعلـن للجميـع خبـر ارتباطنـا وزواجنـا الوشـيك، دون حتـى أن يخبرنـي أنـه سـيفعل هـذا ويُصـرح بهـذا الإعـلان للجميـع، ربمـا جعلهـا لـي مفاجـأة، لكنـي وددتُ لـو تمـت باتفـاق مسـبق بيننـا... وبكلمـاتٍ قليلـة مختصـرة أعلـن الخبـر:

سأسـافر الشـهر المقبـل لمكتبنـا فـي مدريـد، وبعـد عودتـي سـيكون هنـاك حفـل لزواجـي أنـا وفـراق.

فـرح الجميـع أو أبـدوا ذلـك، وأخـذوا يقولـون عبـارات التهنئـة لـه ولـي... والتزمـت أنـا الصمـت ولـم أقـل شـيئًا؛ تركـتُ كل شـيء للأيـام التـي قالـت كلمتهـا.

فـي نفـس يـوم إعلانـه للخبـر أخذنـي للعشـاء فـي مطعـم عائـم علـى سـطح النيـل، وأخبرنـي أنـه انتهـى مـن بنـاء طابـق جديـد فـي الفيـلا، سـيكون المـكان الـذي سـنعيش فيـه بعـد الـزواج:

ألن يضايق هذا وجدان؟

لا لقـد تحدثـت معهـا، وهـي ليسـت لديهـا أيـة مشـكلة فـي هـذا، ثـم أن وجـدان سـتتزوج فـي خـلال أشـهر قليلـة، وتذهـب لتعيـش مـع زوجهـا.

خبر جديد من نوعه.

نعـم، وجـدان لا تريـد أن تقـوم بإعلانـه الآن... المهـم اسـتعدي، فمـن الغـد سـنبدأ فـي اختيـار أثـاث منزلنـا الجديـد، والنجـف والتحـف واللوحـات وكل هـذه الأشـياء.

وماذا عني، ماذا يجب عليّ أن أُحضر في أثاث منزلنا هذا؟

أحضري فقط فراق.

رفـض أن أُشـارك ماديًـا فـي تجهيـزات بيتنـا الجديـد، وقـال لـي إن مشـاركتي بالـرأي هـي كل مـا يريـد... أخذنـي لأرقـى الأماكـن التـي تبيـع كل مـا يلـزم بيـت عصـري وجميـل، واختـرت كل مـا أحببـت، كانـت أيـام مرهقـة ولكـن سـعيدة... وفـي إحـدى أيامـي معـه داخـل مقهـى أنيـق، طلبـت شـاي وتذكـرت تشـبيهه لـي بأنـي "أحـب الشـاي مثـل زهـرة"، وقـد كان فضولـي مـازال قائمًـا لكـي أعـرف أي زهـرة هـذه، فسـألته مـرة أخـرى السـؤال القديـم الـذي لـم يُجـب عليـه مـن قبـل:

بمناسبة أني أحب الشاي مثل زهرة.

عنـد قولـي هـذا لاحظـتُ اندهاشـه الشـديد، وكأنـه للحظـة نسـيّ أنـه يُشـبهني كثيـرًا بزهـرة:

أي زهـرة تحـب أن أكـون؟ زهـرة أوركيـدا أم أقحـوان أم نرجـس أم مـاذا؟

لسـتِ أوركيـد لأنـه ليـس بـكِ غرابتـه... ولسـتِ أقحوانـة، ينقصـكِ بسـاطتها... كذلـك أنـتِ لسـتِ مغـرورة أو أنانيـة مثـل النرجـس... أنـتِ ياسـمينة.

أخيـرًا عرفـتُ أي زهـرة أنـا فـي نظـره، وهـو ينطـق كلمـة ياسـمينة شـممتُ عطرهـا ورأيـتُ فـي ابتسـامته بياضهـا الناصـع... ثـم ضحـك؛ فاحتـرتُ بـأي لغـة يضحـك، بـأي سـحر ينظـر؟

كاد تجهيـز البيـت أن ينتهـي، عندمـا حـان موعـد سـفره إلـى مدريـد، ذهبـت معـه إلـى المطـار، وقبـل أن يدخـل صالـة المغـادَرَة، أمسـك يـدي اليمنـى وخـط بإصبعـه علـى باطـن كفـي الحـرف الأول مـن اسـمه، ثـم رسـم قلبًـا حولـه، وتـرك يـدي فضممتهـا بشـدة وقلبـي يـكاد أن يقفـز مـن مكانـه، كان هـذا وداعـه لـي دون كلمـة، ثـم اختفـى مـن أمامـي وسـط زحمـة المسـافرين، وعـدتُ أنـا بيـد تحمـل قلبًـا ينبـض بالحـب.

ظـل يقـوم بالاتصـال بـي مـن مدريـد ثـلاث مـرات فـي اليـوم؛ أسـتيقظ

علـى صبـاح الخيـر منـه، ويسـألني عـن أخبـاري فـي الظهيـرة، ويحكـي معـي حوالـي نصـف سـاعة قبـل أن أنـام... ولـم أكـن أدري مـن أيـن يأتـي بـكل هـذا السـحر حتـى وهـو علـى البُعـد... لمـدة عشـرة أيـام كاملـة، ونحـن علـى هـذه الحالـة الشـاعرية الجميلـة، التـي زادتنـا قربًـا علـى قـرب، فمـا أجمـل أحاديـث الحـب عبـر القـارات.

عشـقتُ صوتـه، كان جميـلًا مـن خـلال سـماعة الموبايـل، كمـا هـو جميـل فـي الواقـع، وكانـت الكلمـات تصلنـي وكأنهـا ألحـان عذبـه، ألحـان ورديـة، وكنـت أتسـائل: هـل للصـوت لـون؟

9

استيقظتُ اليوم على ألم شديد في أحد ضروسي، ضرس في الناحية اليمنى من الفم، أزلت غطاء من فوق أحد المرايا في البيت، ونظرت أريد رؤية هذا الضرس؛ لكن السحابة كانت هي كل ما رأيت، وقد أصبحَت اليوم قُرمزية اللون، تُرى هل هذا هو لون الألم للوجوه التي هي على شكل سُحب؟... في المكتب أبدت رحاب ملاحظتها، وقالت لي أن خدي من ناحية اليمين متورم؛ وتعجبت لماذا حضرت للعمل وأنا بهذه الحالة... لم أدرِ بماذا أُجيبها، فكيف لي أن أعرف أن لديّ تورم في وجهي وأنا لا أرى منه شيئًا.

في المساء كنتُ في عيادة طبيب الأسنان، وكانت المضادات الحيوية في انتظاري، ثم حسب خطة العلاج سيتم حشو الضرس الذي يعاني من التسوس... وكل يوم أسأل رحاب عن حال التورم في وجهي حتى أعرف لأي مدى يبدو شكل وجهي الذي لا أراه.

في إحدى الليالي وقفت أمام المرآة وأنا أسأل نفسي: "تُرى هل تتأثر هذه السحابة مثلما تتأثر بشرة الوجه؟" حاولت الضغط على وجهي بأصابعي فلم ألاحظ أي تغيير على السحابة، صفعت وجهي فظلت على حالها، ثم تماديت فجرحت السحابة عند مكان الذقن جُرحًا طفيفًا؛ ورأيتُ في المرآة أنها بدأت تُمطر دمًا.

بسرعة أوقفت نزيف السحابة، ووضعت لاصقًا طبيًا على مكان الجرح، وبدت السحابة جريحة ومنكسرة بهذا الشكل الذي أحدثته فيها، ثم استلقيت على السرير وأنا أفكر من جديد في حالتي... هل ما أراه في المرآة هو رؤية حقيقية أم مستوى آخر من الرؤية؟ ربما أصبحَت لي قدرات خاصة لرؤية ما لا يمكن للآخرين رؤيته؛ وها أنذا أبدأ بنفسي، بوجهي... أم هل تم اختطاف وجهي من قِبل قوة

مجهولة واستبدلوه بهذه السحابة؟ ربما وجهي يهيم الآن في عوالم خارجية، أو يتصدر رأس كائن فضائي ذو جناحين... أخذت الهلاوس الفكرية تتلاعب برأسي، إلى أن اختطفني النوم منها.

لا بد من وجود حل لهذه المشكلة التي أغرق فيها وإلا أصابني الجنون، لذا قررت أخذ رأي أستاذ محمد إبراهيم؛ ذهبتُ إليه في المكتبة، وحكيتُ له عما أراه في المرآة عندما أنظر لوجهي، أخبرته عن الطبيبة النفسية التي ذهبت إليها وأني رفضتُ أن آخذ الأدوية التي أعطتها لي... قلتُ له كل ما أشعر به من ألم وحيرة وتخبط... استمع إليّ حتى أنهيتُ كل ما أريد قوله، ثم بدت كلماته مطمأنة، تحمل الأمل في وجود حل ما في مكان ما:

لا تخافي يا شروق، كما أن لكل داء دواء فإن لكل مشكلة حل، وأنا أؤيد قرارك في عدم أخذ أدوية؛ فلا أعتقد أنها حالة تحتاج لدواء، وأيضًا أنا لست من أنصار أخذ الدواء غير للضرورة القصوى.

صمت قليلًا وهو يفكر بعمق، ويزن في رأسه حجم هذا المشكلة الغريبة من نوعها، ثم أضاف:

لماذا لا تجربين علم النفس؟

وهل هناك فرق بين الطب النفسي وعلم النفس؟

طبعًا هناك فرق... الطب النفسي هو فرع من فروع الطب التي تهتم بفهم وتقييم وتشخيص وعلاج الاضطرابات العقلية، وتعتمد علاجاتهم في المقام الأول على الدواء... أما علم النفس فهو الدراسة العلمية للعقل البشري والسلوك مثل كيف نفكر ونشعر ونتفاعل ونتصرف مع الآخرين، ويهتم علم النفس بجوانب السلوك والأفكار والمشاعر والدوافع الكامنة وراء كل هذا.

أعتقد أن علم النفس هو ما قد يصلح لحالتي هذه، هل تعرف أحدًا في هذا المجال؟ أو أحدًا قد تم علاجه عن طريق علم النفس؟

ابـن أختـي كان يذهـب لأخصائـي نفسـي منـذ عاميـن، وتحسـنت حالتـه كثيـرًا.

كـم عمـر ابـن أختـك؟ ومما كان يشـكو؟ إذا لـم يكـن هنـاك تطفـلًا لأن أعـرف.

ابـن أختـي شـاب وسـيم ويعمـل فـي وظيفـة مرموقـة، لكنـه يخـاف مـن أن يترقـى فـي عملـه حتـى لا يضطـر للتعامـل مـع عـدد أكبـر مـن النـاس، لديـه مـا يُسـمَى بالرهـاب الإجتماعـي؛ ممـا يجعلـه يشـعر بالخجـل والاضطـراب أمـام النـاس، ويصـل بـه الأمـر فـي بعـض الأحيـان لاحمـرار الوجـه وتعـرق فـي اليديـن وضربـات قلـب سـريعة، لـذا فقـد أقنعتـه أنـا وأختـي بالذهـاب لأخصائـي نفسـي؛ وبعـد عـدة جلسـات رأينـا الفـرق واضحًـا جـدًا فـي مـدى تحسـن حالتـه... سـأقوم بالاتصـال بـه وأحصـل منـه علـى مـكان العيـادة ورقـم التليفـون.

هـذه الكلمـات جعلتنـي أتحمـس أكثـر لعلـم النفـس، وشـعرتُ بـه أفضـل لحالتـي مـن الطـب النفسـي الـذي يرتكـز علـى الـدواء فـي علاجاتـه... ابتعـد أسـتاذ محمـد قليـلًا للحديـث مـع ابـن أختـه عبـر الهاتـف، ثـم دخلـت المكتبـة فتـاة هادئـة الملامـح، أخـذت أنظـر إليهـا وأحـاول أن أتذكـر ملامـح وجهـي الـذي أكاد أن أنسـاه، ظلـت تتفقـد الكتـب لعـدة دقائـق ثـم اختـارت دفتـر لتلويـن الرسـومات وعلبـة ألـوان، ولـم يكـن سـامح بالمكتبـة، لـذا فقـد قمـتُ مـن مكانـي وأديـت دوري القديـم، وبعـت لهـا الدفتـر وعلبـة الألـوان.

بعـد أن أنهـى أسـتاذ محمـد حديثـه التليفونـي مـع ابـن أختـه، اقتـرب منـي، وأعطانـي ورقـة كتـب عليهـا اسـم الأخصائـي النفسـي وعنـوان العيـادة ورقـم التليفـون؛ وطلـب منـي أن أطمأنـه علـى سـير الأمـور، وأحضـر إليـه فـي أي وقـت أحتـاج إليـه... نظـرت للاسـم المكتـوب علـى الورقـة (دكتـور يوسـف) وأعجبنـي كثيـرًا اسـمه، فربمـا اسـتطاع أن يُفسـر

لـي أحلامـي الغريبـة التـي أراهـا... شـكرت أسـتاذ محمـد بشـدة، وقبـل أن أخـرج مـن المكتبـة اسـتوقفني، ثـم بحـث بيـن الكتـب وأخـرج مـن بينهـا كتـاب أعطـاه لـي بعنـوان (دع القلـق وابـدأ الحيـاة)، نظـرت لاسـم المؤلـف (ديـل كارنيجـي)... شـكرته علـى الكتـاب وعلـى كل شـيء وذهبـت.

فـي الطريـق تصفحـت الكتـاب ووقعـت عينـايّ علـى جملـة هـي بمثابـة مهـدئ سـريع المفعـول (عـش فـي حـدود يومـك ولا تأسـى علـى مـا فاتـك ولا تعبـر جسـرًا إلا بعـد الوصـول إليـه).

قمـتُ بالاتصـال بعيـادة الأخصائـي النفسـي، وتـم تحديـد ميعـاد لـي؛ الخامسـة مسـاءً فـي اليـوم التالـي، لـذا وجـب علـيّ أن أسـتعد لهـذا اللقـاء النفسـي، قمـت بالاتصـال بالأسـتاذ ربيـع، وأخبرتـه بأنـي أريـد أجـازة لليوميـن التالييـن ؛فسـألني عـن بعـض النقـاط والتقاريـر التـي أعمـل عليهـا، فأخبرتـه بأنـي سـأنتهي منهـا الليلـة وأرسـلها لـه... فتحـت اللابتـوب وجلسـت أعمـل حتـى سـاعة متأخـرة مـن الليـل إلـى أن انتهيـت مـن عمـل كل مـا هـو مطلـوب منـي، وأرسـلته للأسـتاذ ربيـع بالايميـل، وأرسـلتُ لـه إيميـل آخـر بطلـب الأجـازة.

فـي اليـوم التالـي اسـتيقظتُ مـن النـوم متأخـرة، أزحـتُ غطـاء المـرآة التـي هـي فـي حجـرة النـوم، وألقيـتُ تحيـة الصبـاح علـى السـحابة، ربمـا إذا تصالحـتُ معهـا تُغادرنـي، وتُعيـد لـي وجهـي الـذي سـلبته.

فـي حوالـي الرابعـة مسـاءً خرجـت مـن البيـت، وفـي الطابـق الثانـي رأيـتُ سـامح وهـو يصعـد السـلم، بـدا وكأنـه عائـدًا مـن الكليـة، يُعلـق حقيبـة جلديـة سـوداء اللـون علـى كتفـه ويرسـم ابتسـامة علـى وجهـه، اتسـعت عندمـا رآنـي، وتوقـف مكانـه عـن الصعـود وهـو يتابعنـي بعينيـه؛ واصلـتُ أنـا هبوطـي لدرجـات السـلم واجتزتـه وأنـا أقـول لـه:

كيف حالك يا سامح، وما هي أخبار الدراسة والامتحانات؟

سمعته وهو يرد عليّ وأنا أواصل نزولي درجات السلم.

الحمد لله تمام... لو سمحتِ بشمهندسة شروق أريد أن أسأل حضرتك سؤال.

توقفت والتفت إليه وأنا أقول:

بسرعة يا سامح، فلديّ موعد هام، ولا أُريد أن أتأخر.

آسف... يمكنني أن أؤجل سؤالي ليوم آخر حتى لا تتأخري عن موعدكِ.

أوك... سلام.

أتعمد في كل مرة أقابل فيها سامح أن أعامله بجفاء... هو طفل بالنسبة لي، لكنه لا يريد أن يفهم هذا.

في الخامسة تمامًا كنت أقف على باب عيادة الأخصائي النفسي... على الباب قرأتُ الاسم كاملًا، وبالداخل انتظرتُ حوالي عشرين دقيقة، لم يكن بالعيادة أحد غيري، ولم تكن العيادة بفخامة عيادة الطبيبة النفسية التي ذهبت لها من قبل، لكنها هادئة وبسيطة، بها أصيص به زرع أخضر أضفى حياة وروح على المكان، والممرض صغير السن، بشوش الوجه، كان لاندهاشي يقرأ في كتاب، هذا المنظر الذي نفتقده كثيرًا من حولنا لأشخاص يقرأون الكتب في كل وقت يسمح لهم عملهم بهذا.

بعد قليل من الانتظار، خرج رجل متوسط العمر من مكتب الأخصائي النفسي، ودخلت أنا... ووجدتُ نفسي أمامه؛ طويل القامة، رياضي الجسم، قمحي اللون، بشوش الوجه، يطل ذكاء واضح من عينيه، يرتدي بدلة كاملة زرقاء اللون، ورابطة عنق جميلة، ويضع نظارات طبية على عينيه، يمكن أن أختصر وصفه في كلمتين فقط، وسيم وأنيق... قام من مكانه بمجرد أن دخلت المكتب وصافحني وكأنه يعرفني من قبل... شعرتُ بارتياح شديد بمجرد أن نظرت في وجهه، وزاد من ارتياحي ابتسامته التي شجعتني كي أبدأ الكلام دون

حتـى أن يُبـادر بسـؤالي:

أرجـو يـا دكتـور ألا تشـعر بالغرابـة مـن حالتـي هـذه التـي سـأحكيها لـك، فأنـا لا أعتقـد أنـك قـد سـمعت بمثلهـا مـن قبـل، هـو شـيء بعيـد كل البعـد عـن العقـل والمنطـق... أولًا اسـمي فـراق.

اسم مميز؛ أول مرة أسمع هذا الاسم.

أراه اسـم غريـب أكثـر منـه مميـز... وأعتقـد أن سـبب مشـكلتي هـو اسـمي.

وما هي مشكلتكِ من وجهة نظركِ أو كما ترينها؟

منـذ مـا يقـرب مـن شـهرين، وأنـا لا أسـتطيع أن أرى وجهـي فـي المـرآة؛ اختفـى وظهـرت مكانـه سـحابة تتلـون حسـب الحالـة المزاجيـة التـي أكـون عليهـا.

ظهـر علـى وجهـه تأثيـر هـذا الـذي سـمعه منـي؛ خليـط مـن الدهشـة وربمـا عـدم التصديـق، ثـم سـألني:

كم عمركِ يا فراق؟ وهل تعملين؟

عمـري 27 عـام، وأنـا مهندسـة عمـارة، لكنـي لا أعمـل فـي مجـال تخصصـي حاليًـا.

أولًا، احكي لي عن طفولتكِ وحياتكِ بشكل عام.

أنـا عشـت حياتـي حتـى أصبحـت فـي حوالـي العشـرين مـن عمـري فـي المقابـر.

دهشـة أخـرى ظهـرت علـى وجهـه، فهـو بالتأكيـد لـم يتحـدث مـع شـخص عـاش فـي المقابـر مـن قبـل.

لماذا كنتِ تعيشين في المقابر؟

لأنه المكان الذي أعطته لي الحياة.

حكيـتُ لـه عـن طفولـت،ي وعـن أبـي، وعـن حياتـي فـي المقابـر حتى تركتهـا، حكيـتُ لـه أيضًـا عـن تـاج والخطـاب الـذي تركـه لـي وأخبرنـي فيـه

أنه يحبني، عن موته المفاجئ ومساعدته لي حتى وهو ميت... عن اسمي الذي ظل يواصل خطته في أن يجعلني أفترق عن كل مَن يحبونني؛ أمي وأبي وتاج.

ظل يسمعني أحكي الحكاية دون أن يقطع كلامي، يهز رأسه مرة ويزم شفتيه مرات أخرى، وعندما انتهيت من الكلام قال لي:

لو كان باستطاعتكِ تغيير شيئًا من حياتكِ الماضية، ما الذي تتمنين تغييره؟

اسمي وحياتي في المقابر، بالأخص اسمي الغريب؟

لماذا تضعين في رأسك هذا الاعتقاد يا فراق؟ اسمكِ مميَز وليس (غريب)... هل كنتِ تُفضلين مثلًا أن تكوني إيمان أو هدى أو سلوى أو أمل؛ هناك الآلاف وربما الملايين يحملون هذه الأسماء وغيرها الكثير المتشابه... أكملي الحكاية يا فراق، أُريد أن أعرف ماذا حدث بعد أن أكملتِ تعليمكِ.

في الكلية كان لي صديقة مقربة اسمها "وجدان"، والدتها متوفاة منذ كانت صغيرة، ووالدها لديه مكتب هندسي... بعد تخرجنا عملتُ أنا وهي في هذا المكتب... ثم أُعجب بي والدها وأراد الزواج مني؛ ترددتُ في البداية، لكني وجدتُ نفسي أنجذب ناحيته، وناحية هذه الحياة الجديدة التي لم أكن حتى أحلم بها يومًا؛ لكن هذه الحياة لم تأتِ مطلقًا.

لماذا؟

لأنه ببساطة مات... قبل أن يُعلن ارتباطنا رسميًا مات... بعدها كرهتُ اسمي بشدة، شعرتُ أنه سبب كل هذا الفراق الذي يلاحقني كلما تقربت من أحد أو تقرب مني أحد... أصبحتُ لا أحتمل مجرد أن يناديني أحد ويقول "فراق"؛ لذا فقد اتخذتُ قراري بأن أقوم بتغيير هذا الاسم الذي لا يأتيني من وراءه غير الفراق، سألتُ عن إجراءات

تغييـر الاسـم، لكنـي وجدتهـا إجـراءات طويلـة ومعقـدة؛ فأقلعـتُ عـن الفكـرة وقـررتُ أن أقـوم بتغييـره فـي حياتـي وليـس فـي أوراقـي... فاضلـت بيـن الأسـماء المختلفـة وقـررت أن أكـون (شـروق)... أخبـرت معظـم مَـن أعرفهـم بالاسـم الجديـد وأصبحـتُ أتعامـل بـه فقـط... ونـادرًا مـا أسـمع حاليًـا اسـمي القديـم "فـراق".

جميـل شـروق؛ وأيضًـا جميـل فـراق، لا أُريـدكِ أن تكرهـي فـراق مطلقًا، وانزعـي مـن تفكيـرك فكـرة أن مَـن ترتبطيـن بهـم يموتـون بسـبب اسـمك، لـكل إنسـان عمـره المعـروف قبـل حتـى أن يُولـد، اسـمكِ لا يتسـبب فـي مـوت أحـد.

صمتَ قليلًا ليجعلني أعي معنى ما قال ثم أضاف:

أخبرينـي متـى بالضبـط بـدأت المشـكلة؟ وأقصـد بمتـى أي بعـد حـدوث مـاذا فـي حياتـك؟

لـم يحـدث شـيئًا محـددًا بعدهـا ظهـرت السـحابة مـكان وجهـي، لكنـي تلـك الليلـة رأيـتُ كابوسًـا رهيبًـا، اسـتيقظتُ بعـده لأجـد أنـي فقـدتُ وجهـي، ولـم أسـتطع رؤيتـه بعـد تلـك الليلـة حتـى الآن.

احكي لي هذا الكابوس.

حكيـتُ لـه الكابـوس بـكل تفاصيلـه التـي مازلـتُ أتذكرهـا جيـدًا، واسـتمع إلـيّ هـو فـي تركيـز تـام؛ ثـم قـال لـي:

بالطبـع ليـس مـن المنطـق أن يتسـبب كابـوس فـي هـذه الحالـة التـي تعانيـن منهـا... عـلاج الحـالات النفسـية يـا بشمهندسـة شـروق لـه طريقين: دوائـي أو كلامـي؛ وأنـا أتبـع الطريـق الكلامـي أو المعـروف بالجلسـات النفسـية، كل جلسـة سـتكون فـي حـدود سـاعة، أُعطيـكِ بعدهـا تدريـب تقومين بـه، ثـم تعـودي مـرة أخـرى بعـد أسـبوع لنتابـع الحـوار، وأُعطيـكِ مزيـد مـن التدريبـات العمليـة... هـل توافقيـن علـى الاسـتمرار معـي بهـذه الطريـق؟

نعم أوافق، أنا لا أُحب طريق الدواء ولا أنوي السير فيه مطلقًا... ذهبتُ لطبيبة نفسية بعد أن ظهرت هذه السحابة بوقت قصير، ورفضتُ أن آخذ الأدوية التي أعطتها لي؛ ولذا قررتُ أن ألجأ لعلم النفس.

قرار سليم وشجاع، فليس كل الناس لديهم القوة على اتخاذ هذه الخطوة وطلب المساعدة الطبية لحالتهم النفسية... والآن سأعطيكِ التدريب الأول، وهو أن تبذلي مجهود بدني أكبر من المعتاد، مثلًا أن تقومي بالمشي لعدة ساعات، أو الجري، أو حتى الرقص أمام المرآة... ستتخلصين بعد هذا المجهود من طاقة سلبية كبيرة، ثم اجلسي واكتبي كل مشاعركِ، وكل ما مر بكِ في يومكِ؛ واقرأيه فيما بعد، وستجدين أن هناك الكثير الذي كنتِ ترينه مؤلم وضخم، بأنه لم يكن أبدًا بهذا القدر الذي كنتِ تتصورينه... وإذا كنتِ تبذلين الكثير من المجهود النفسي والعقلي يمكننا أن نقلل منهما ببذل مجهود بدني أكبر... هل يصلكِ المعنى الذي أريد أن أشرحه لكِ؟

نعم، أفهم تمامًا ما تريد قوله.

ممتاز جدًا... إذًا هذا هو أول تدريب ستقومين به، وأراكِ بعد أسبوع في مثل هذا اليوم وهذا الوقت، لنتحدث في جلسة أخرى.

شكرته، وخرجت من العيادة وأنا أشعر ببعض الارتياح، وبأمل في عودة ملامح وجهي مرة أخرى.

لقائي هذا مع الأخصائي النفسي جعلني أتصالح مع مرايا البيت؛ فأزلت الأغطية التي كنت أضعها عليها... وفي هذه الليلة، حلمتُ بأني أقف أمام إحدى هذه المرايا، وقد ظهر للسحابة عينين، كنتُ أدقق النظر في هاتين العينين، ولم يكن يظهر فيهما بؤبؤ العين، كان هناك بحرٌ يجري.

10

أخبـرت كل مَـن أعـرف بخبـر زواجـي مـن والـد وجـدان بعـد عـدة أسـابيع، بـدأت بدكتـور رضـا الـذي فـرح كثيـرًا لكـن كان لـه بعـض التحفـظ علـى فـارق العمـر بيننـا... والأسـتاذ محمـد هنأنـي وقـال أنـه يثـق فـي إختياراتـي، أمـا عمّـة تـاج فقـد بكـت عنـد سـماعها الخبـر، وقالـت لـي أنهـا كانـت تتمنـى أن ترانـي عـروس لتـاج، ثـم مسـحت دموعهـا سـريعًا وقبلتنـي مهنئـة... الأسـتاذ مينـا كان أكثـر مـن أسـعده هـذا الخبـر وقـال لـي أنـه سـيبدأ فـي رسـم بعـض اللوحـات التـي سـتكون هديـة زواجـي لمنزلـي الجديـد.

الأصعـب علـى نفسـي كان رد فعـل سـامح الـذي مـلأت الدمـوع عينيـه عندمـا أخبرتـه وهـو ينتظرنـي أمـام المبنـى فـي أحـد الأيـام، وكأننـي ألقيـت فـي وجهـه قنبلـة وليـس خبـرًا سـعيدًا، نظـر لـي دون كلمـة ثـم تركنـي وذهـب مـن أمامـي كعاصفـة... توقـف بعدهـا عـن انتظـاري أمـام المبنـى كمـا كان يفعـل... أعـرف أن الخبـر كسـر جـدران قلبـه الزجاجيـة وتناثـرت شـظاياها لتنغـرس فـي روحـه.

فـي اليـوم الحـادي عشـر مـن سـفره لـم أتلـقَ مكالمتـه الصباحيـة ككل يـوم، فقمـتُ بالاتصـال بـه، لكـن لـم يأتنـي أي رد... وظللـت أحـاول الاتصـال بـه حتـى مـا بعـد الظهـر لكـن دون فائـدة، ملأنـي القلـق، فقمـتُ بالاتصـال بوجـدان لأسـألها عنـه، فوجدتهـا تبكـي وفـي حالـة انهيـار؛ تضـع الكلمـات بجـوار بعضهـا البعـض وكأنهـا لا تعـرف كيـف تصيغهـا:

بابـا حدثـت لـه أزمـة قلبيـة وهـو فـي مديريـد، أنـا فـي المطـار... بابـا تعبـان جـدًا يـا فـراق.

مـاذا حـدث بالضبـط ومتـى؟ ولمـاذا لـم تخبرينـي عندمـا علمـتِ؟... أرجـوكِ يـا وجـدان أريـد أن أتحـدث معـه.

سـأقوم بالاتصـال بـكِ عندمـا أصـل وأعـرف التفاصيـل، أنـا سـأركب الطائـرة الآن.

ثـم أغلقـت التليفـون، وظللـت أحـاول الاتصـال بهـا دون جـدوى وأنـا أضـم بشـدة يـدي اليمنـى التـي رسـم بهـا قلـب بداخلـه أول حـرف مـن اسـمه، وأشـعر بذلـك القلـب ينبـض بشـدة... أصابتنـي حالـة مـن الذهـول والألـم، وتركـتُ دموعـي تنهمـر دون أن أحـاول إيقافهـا، كان يحدثنـي بالأمـس ككل يـوم، مـاذا حـدث إذًا؟

بعـد أن فتحـت وجـدان التليفـون، ظللـت أُلـح عليهـا باتصالاتـي فتـرد مـرة ولا تـرد عشـرات المـرات، عرفـت منهـا أن حالتـه خطيـرة، وسـيخضع لعمليـة قلـب مفتـوح؛ فملئنـي الخـوف عليـه، وأصابنـي الرعـب مـن أن ينتزعـوا حبـي مـن قلبـه أثنـاء هـذه العمليـة التـي لا أعـرف كيـف تتـم.

كنـت أقضـي اليـوم فـي قلـق وخـوف، والليـل فـي رؤيـة كوابيـس غريبة مـن نوعهـا، فكنـت أرى وكأنـي فـي يـوم مشـمس جميـل وفجـأة تمتـلأ السـماء بالسـحب، سـحب سـوداء كبيـرة، ثـم يبـدأ المطـر ينهمـر منهـا على هيئـة قطـرات مـن الظـلام، كلمـا سـقطت علـى شـيء أظلمتـه ومحـت نـور الشـمس مـن عليـه... وفـي كابـوس آخـر رأيـت سـامح يقـف أمامـي ثـم يضحـك كإنفجـار مفاجـئ فيملأنـي صوتـه بالرعـب... وفـي كابـوس آخـر رأيـت تـاج وهـو يُطفـئ حريـق اندلـع فـي ملابسـي.

أعـدتُ قـراءة كل الرسـائل التـي كان يرسـلها لـي علـى رقـم التليفـون الـذي يخصصـه لـي وحـدي، ومـع كل رسـالة تنهمـر دموعـي كنهـرٍ جـاري، كانـت آخـر رسـائله قبـل يومين مـن انقطـاع كلماتـه وصوتـه عنـي، كتـب لـي فيهـا: (تأتيـن لـي فـي الأحـلام كليـل مرصـع بالنجـوم... تأتيـن كقـارب ملـيء بالهدايـا والأمنيـات ورائحـة البحـر).

ذهبـتُ لشـقة أسـتاذ مينـا وأخبرتـه بالمحنـة التـي أمـر بهـا، وبكيـتُ كثيـرًا وأنـا أتكلـم، حـاول تهدئتـي وقـال لـي:

اشكري ربنا على كل شيء يا فراق، نحن أضعف وأجهل من أن نعلم أين هو الخير.

بعد عدة أيام رأيتُ حلمًا سيئًا؛ وكأني أحفر حفرة عميقة، ثم أقطع بسكين القلب الذي رسمه على راحة يدي اليمنى، وأضعه بالحفرة وهو ينزف دمًا... استيقظتُ متلاحقة الأنفاس، مستعيذة بالله من الشيطان الرجيم مما رأيت في الحلم، ثم سمعتُ صوت غراب يأتيني من النافذة، وقفتُ أنظر إليه وقد كان يجرح بصوته سكون الليل ويُوقظ خوفي من نومه.

خلال أيام قليلة جائني الخبر الفاجعة، دخل في غيبوبة ثم مات... هكذا حدث كل شيء بسرعة، موت آخر كان في انتظاري، وكأن الفراق يأبى أن يتركني ويبتعد.

عند سماعي هذا الخبر الذي وقع على قلبي كصاعقة، أصابتني حالة من الذهول والصمت، حتى أني لم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة، أو أذرف دمعة واحدة؛ فقط ضممت يدي اليمنى بشدة حتى انغرزت أظافري فيها وسال الدم منها، وأنا لا أشعر بهذا الألم الذي كان يُلهيني عنه ألم أكبر بالروح... هكذا فجأة تُغير الأيام اتجاهها فتتغير كل حياتنا؛ ونبتعد عن الطريق الذي كنا نسير فيه، لنجد أنفسنا في طُرق جديدة ومصائر مختلفة... ميت آخر أشيعه داخل قلبي، وتبقى لي ذكرياته.

ظل القلب الذي رسمه لي على يدي ينبض ألمًا في راحة يدي التي تنزف دمًا لا أريد أن أوقفه، وكنت فيما بعد كلما إزداد شوقي إليه تتسارع دقات هذا القلب في يدي.

حضر الجثمان من مدريد، ولم أترك وجدان في كل أيام العزاء، بكيته بحرقه وبكيت حالي معه... وبموته انتهت هذه الصفحة الجميلة من حياتي، وبقيّ لي آلامها وأحزانها وذكرياتها... بعدها

بأسابيع قليلة أغلقت وجدان المكتب الهندسي، وسافرت لتستقر وتعمل في مدريد؛ وأصبحتُ بلا عمل، حتى علاقتي بها أصبحت سطحية، مجرد السؤال عن الأحوال عبر الإيميل؛ وكأن موته أزاح عن قلبها ثِقل زواجي من أبيها.

رحل هذا الحبيب الاستثنائي عن حياتي، وترك وراءه فراقان وثلاثة أشواق، فراق الحب وفراق السعادة؛ وشوق لابتسامته وعينيه وصوته... ترك لي أيضًا عدة أسطر من الحزن، وفصل كامل من الدموع.

وإذا حدث وسألني أحد وقتها عن البحر الذي نشأ فجأة في منتصف قلبي، سأكذب عليه وأقول إنه مجرد سراب ظهر من كثرة ما قرأت عن الصحاري؛ لن أقول الحقيقة أبدًا، لن أقول أنه نشأ من كل تلك الدموع التي سكبتها عينايّ.

ظللتُ لعدة أشهر في حداد على موته، ارتديتُ الأسود، ونقص وزني حوالي خمسة كيلو جرامات، وجدتُ المواساة من الجميع من حولي، وعاد سامح لينتظرني مرة أخرى أمام المبنى، وكأن الحاجز الذي كان يمنعه من الاقتراب مني قد تهدم، هو بالفعل تهدم ولم يعد له وجود... وقال لي يومًا وهو يسير بجواري حتى أجد تاكسي:

لا تحزني بشدة هكذا، ستجدين يومًا الحب الذي يملأ حياتكِ، فقط انظري حولكِ.

لم أكن بحاجة لكي أنظر حولي، يكفيني أن أنظر بداخلي حتى أجد حبه مازال يملأ القلب، رغم اختفاءه هو من كل الأماكن.

قضيتُ أيامًا طويلة من الكآبة والضيق؛ شعرتُ بأني أحملُ عبئًا ثقيلًا فوق كاهلي... تذكرتُ كل فراق مر بي في حياتي وأكثرها إيلامًا، وهو فراق أبي وفراق تاج، حاولت أن أجد السبب الحقيقي لكل هذا الكَمْ من الفراق الذي يطاردني أينما ذهبت؛ وأرجعتُ جزءً كبيرًا منه لاسمي "فراق"؛ هذا الاسم الذي كلما اقتربتُ به من أحد

يفارقني؛ لن أكذب على نفسي بعد اليوم؛ لم يكن اسمي جميلًا أو حتى نذير خير لأي أحد يسمعه... لذا فقد اتخذتُ قراري بأن أقوم بتغيير اسمي.

ترى ما الاسم الجديد الذي يجب أن أُعطيه لنفسي؟ أحد أهم معايير اختيار اسمي الجديد هو أن يكون بعيدًا كل البعد عن أي فراق أو رحيل أو غروب؛ مجردًا من كل أنواع المعاناة والآلام والدموع... وبعد المفاضلة بين الأسماء العديدة اخترت اسم "شروق"؛ وهكذا نفضتُ الحزن والفراق عن قلبي، وبدأتُ أتعامل مع العالَم بروح جديدة؛ بشروق جديد.

سألت عن إجراءات تغيير اسمي في شهادة الميلاد وشهادة التخرج وكل الأوراق الرسمية، ووجدتُ أنها إجراءات طويلة ومعقدة؛ لذا فقد أقلعت عن تغييره في الأوراق، واكتفيتُ بتغييره في الواقع؛ أخبرت معظم الذين أعرفهم باسمي الجديد، وطلبت منهم أن يتعاملوا معي به؛ أنشأت لنفسي إيميل جديد بالاسم الجديد ومحوت إيميلي القديم؛ طلبت من الأستاذ "مينا" أن يرسم لي في لوحة اسمي (شروق)؛ الذي سأعتبره هويتي الجديدة، وقمتُ بتعليقها في الصالة... حاولت أن أتخلص من مطاردة "فراق" لي بكل الطرق التي استطعتها.

كل تلك الخسارات المتتالية والفراق الذي يعقب فراق جعلني لقمة سائغة في فم الحزن، كان يقربني درجة من الصمت ويبعدني درجة عن القوة، لذا أصبحت انطوائية أكثر، وهشة أكثر، ووجدت في الوحدة والبعد عن الناس الدواء الذي أريده لروحي المتعبة.

بعد أن انحسر الحزن قليلًا عن قلبي، بدأت في البحث عن عمل جديد؛ لكني لم أستطع أن أجد وظيفة مناسبة لمجال دراستي؛ كل ما وجدته في ذلك الوقت هو وظيفة في شركة أنظمة تشغيل؛ وكنت في حاجة للعمل كي أعود للحياة، فلا فائدة من الاستمرار في

البـكاء علـى الماضـي الـذي لـن يعـود... أخـذت بعـض الـدورات التدريبيـة، واسـتطعت أن أعمـل فـي هـذا المجـال المختلـف عـن مجالـي، واسـتمرت الحيـاة؛ بعمـل جديـد، بأمـل جديـد، وباسـم جديـد قـررت أن أُشـرق بـه علـى أيامـي الحزينـة.

11

كان لـديّ أسـبوعًا بأكملـه لأنتهـي مـن تنفيـذ التدريـب الـذي طلبـه منـي المعالـج النفسـي؛ لـذا فقـد أخـذت يـوم أجـازة مـن العمـل لتنفيـذ هـذا التدريـب... وبـدأت اليـوم برياضـة المشـي، اسـتيقظتُ مبكـرة، وارتديـتُ جينـز أزرق وكوتشـي أبيـض، وخرجـتُ للمشـي؛ رأيـتُ المدينـة وهـي تسـتيقظ مـن نـوم ليلـة طويلـة، تنفـض عنهـا سـوادها وهدوءهـا، المبانـي تفتـح نوافذهـا وكأنهـا تفتـح عيونهـا، السـماء تسـتبدل ملابـس النـوم السـوداء وترتـدي ثوبهـا الصباحـي الأزرق الجميـل، الشـوارع تغسـل وجوههـا بنـور الصبـاح، والأشـجار تُمشـط شـعرها الأخضـر الطويـل وتنفـض عنـه ظُلمـة الليـل... العمـال والموظفـون فـي طريقهـم للعمـل، التلاميـذ يهرولـون لمدارسـهم، والعربـات المختلفـة الأحجـام والألـوان تنقـل الجميـع مـن هنـا وهنـاك... مشـيتُ حوالـي سـاعتين، ثـم عـدتُ للسـوق الـذي يبعد عـدة شـوارع عـن منزلـي، اشـتريتُ منـه خضـروات وفاكهـة طازجـة، وقفـتُ فـي وسـط السـوق وكأنـي أقـف وسـط مهرجـان مـن الألـوان الحيّـة، الألوان التـي لهـا طعـم، تُغـذي العيـن قبـل الجسـم، وتُنعـش الـروح قبـل العقـل... ثـم رجعـتُ البيـت بنشـاط أكبـر، وروح أكثـر انفتاحًـا علـى العالَـم.

أعـددتُ إفطـارًا لذيـذًا، تناولتـه بشـهية كبيـرة، ثـم قـرأتُ حوالـي سـاعتين فـي كتـاب "دع القلـق وإبـدأ الحيـاة"، لـم أكـن يومًـا علـى وفـاق مـع كتـب التنميـة البشـرية، لكـن هـذا الكتـاب رائـع بـكل معنـى الكلمـة... ثـم أعـددتُ صينيـة مكرونـة بالخضـروات وجبـن الموزريـلا الطازجـة، وأخـذتُ جـزءًا منهـا أعطيتـه للأسـتاذ مينـا.

هـذا اليـوم الـذي بدأتـه برياضـة المشـي، منحنـي طاقـة إيجابيـة كبيرة، وانفتاحًـا علـى العالَـم مـن حولـي، والأهـم مـن هـذا انفتاحًـا علـى العالَـم المختبـئ بداخلـي... فبعـد صـلاة العصـر جلسـتُ أدعـو اللـه كثيـرًا، فتحـت

لـه خزائـن قلبـي المنغلقـة، وأخبرتـه بـكل مـا فـي نفسـي، مـا يُقلقنـي، مـا أتمنـاه، ومـا أخافـه؛ راحـة كبيـرة غمرتنـي وأنـا أدعـو وأواصـل الدعـاء.

فـي المسـاء قـررت أن أسـتمر فـي بـذل مجهـود بدنـي أكبـر ممـا بذلتـه فـي المشـي فـي أول اليـوم؛ لـذا فقـد ارتديـتُ الفسـتان الأزرق، الوحيـد الـذي أحضـره لـي والـد وجـدان، فبعـد أن نقـص وزنـي بعـد موتـه أصبـح فـي إمكانـي ارتدائـه مـرة أخـرى، وأمـام المـرآة مشـطتُ شـعري، ووضعـتُ مسـاحيق تجميـل علـى السـحابة التـي هـي وجهـي الـذي لا أراه، ثـم قمـتُ بفتـح الراديـو، وكانـت هنـاك أغنيـة (عيـون بهيـة) بصـوت محمـد العزبـي العـذب، وبـدأت الرقـص عليهـا، الرقـص مـن الأشـياء التـي تُعتبـر فـن وريـاضـة فـي نفـس الوقـت... لا أدري إن كان هـذا الـذي أفعلـه يُسـمَى رقصًـا أم لا، لكنـه أخـرج مـن داخلـي شـحنة كبيـرة مـن القلـق والتعـب والإحبـاط، شـعرتُ بعدهـا بصفـاء ذهنـي ونشـاط بدنـي... ولـم تكـن كل الحكايـة عيـون بهيـة، كانـت كل الحكايـة وجهـي الـذي تحـول إلـى سـحابة.

بعـد أن تعبـت مـن الرقـص جلسـت أكتـب كل مـا مـر بـي خـلال اليـوم، كل مشـاعري تجـاه مشـكلتي وتجـاه العالَـم ومـا فيـه، وعندمـا تحولـت هـذه المشـاعر لكلمـات ألقيتهـا علـى الأوراق، شـعرتُ بهـا ضئيلـة، وليسـت بنفـس الثِقَـل الـذي كانـت عليـه عندمـا كانـت تحتـل عقلـي وقلبـي... كتبـت أكثـر فشـعرت بتحـرر أكثـر، أخرجـت كل مـا أسـتطيع إخراجـه وألقيـت بـه لـلأوراق لتحملـه نيابـةً عنـي، أصبحـتُ وكأنـي أخـف وزنًـا... تُـرى كـم جرامًـا يضيفـه القلـق والألـم والحـزن لأوزاننـا؟

كان يومًـا مثمـرًا بـكل مـا فعلتـه خلالـه، لـذا فقـد قـررت أن أُخصـص يومًـا كهـذا فـي نهايـة كل أسـبوع، أقضيـه متبعـة هـذا النظـام (المشـي + القـراءة + الطعـام + الدعـاء + الرقـص + الكتابـة).

نمـت بعـد ذلـك، فرأيـتُ حُلمًـا غريبًـا؛ وكأنـي أقـف أمـام مـرآة، وأنظـر لوجهـي الـذي أصبحـتُ أرى فيـه العينيـن فقـط، كنـت سـعيدة بظهـور

عينيـن للسـحابة، وعندمـا دققـت النظـر أكثـر لـم تكـن تلـك العينيـن عينـايّ، عينـيّ مَـن إذًا؟ هـل يُعقـل أن تكونـا عينـيّ بهيـة؟ خرجـت مـن الأغنيـة والتصقـت بالسـحابة، فـي الحلـم أمسـكتُ ورقـة وكتبـت عليهـا كلمـة "شـفتان"، وفـي الحـال ظهـرت للسـحابة شـفتين غليظتين سـوداوتين اللـون، شـهقت مـن الفـزع، وكتبـت مـرة أخـرى "شـفتان رقيقتـان مطليتـان باللـون الـوردي"، وعلـى الفـور ظهـرت الشـفتين فـي السـحابة بنفـس الوصـف الـذي وصفتـه، وهكـذا أخـذتُ أمـلأ السـحابة بأجمـل الملامـح، أنـف دقيـق، عينـان زرقاوتـان، حاجبـان متسـاويان، خـدود حمـراء، رمـوش طويلـة، جبيـن عريـض... كنـت كلمـا كتبـت أحـد الملامـح علـى الورقـة، يظهـر فـي السـحابة، إلـى أن اكتملـت كل ملامـح وجهـي الـذي لـم أكـن أعـرف فـي النهايـة وجـه مَـن هـذا؟

اسـتيقظتُ مـن النـوم مفزوعـة مـن هـذا الحلـم الغريـب، وذلـك الوجـه الـذي كونـت ملامحـه مـن خيالـي، أصابنـي الرعـب مـن أن يتحـول الحلـم لحقيقـة، ويصبـح لـي وجهًـا غيـر وجهـي؛ فجريـت ناحيـة المـرآة أنظـر فيهـا، لكنـه كان مجـرد حلمًـا، ولـم يكـن فـي وجهـي أي ملامـح، فقـط سـحابة صمـاء.

أحضـرتُ دفتـرًا جديـدًا لـه غـلاف متعـدد الألـوان، وأطلقـت عليـه اسـم (دفتـر الأحـلام)، وجلسـت أكتـب بـه كل مـا رأيـت مـن أحـلام منـذ أن أصبـح وجهـي وجـه سـحابة، لابـد وأن لهـذه الأحـلام دلالـة مـا أو تفسـير مـا... وقـد يأتـي يـوم أسـتطيع فيـه أن أربـط كل هـذه الأحـلام معًـا، لتصنـع لـي قصـة متكاملـة، أو ينبثـق منهـا حـل يسـاعدني فـي مشـكلتي.

فـي اليـوم التالـي ذهبـت للعمـل بـروح جديـدة، قـررت معهـا أن أُحـب عملـي أكثـر ممـا أفعـل، وطلبـت مـن رحـاب زميلتـي فـي المكتـب أن نخـرج معًـا فـي المسـاء للذهـاب للسـينما، كانـت المـرة الأولـى التـي أطلـب منهـا شـيئًا كهـذا، لكنهـا وافقـت علـى الفـور.

رحـاب مجنونـة بالموضـة والأزيـاء، علـى عكسـي تمامًـا... تعشـق الألـوان وتناسـقها، وأضـف لهـذا أنهـا تحـب التمثيـل، وتخـرج مـن قصـة حـب لتقـع فـي أخـرى، لدرجـة أننـي لا يمكـن أن أتذكـر أسـماء كل مَـن أحبتهـم... قضيـت معهـا أمسـية جميلـة، شـاهدنا فيلمًـا أجنبيًـا جديـدًا فـي السـينما، وأكلنـا أيـس كريـم، وشـربنا عصيـر قصـب منعـش ولذيـذ.

عـدتُ للأخصائـي النفسـي بعـد أسـبوع، وسـألني عـن نتيجـة التدريـب الـذي أعطـاه لـي فـي الجلسـة السـابقة، وكيـف قمـت بتنفيـذه:

بذلـت مجهـود بدنـي فـي المشـي لعـدة سـاعات وفـي الرقـص، وكانـت النتيجـة مذهلـة؛ فقـد أصبحـت بعـد هـذا اليـوم بـروح منفتحـه أكثـر علـى العالَـم، وطاقـة إيجابيـة كبيـرة، حتـى أنـي بـدأت أحـب عملـي أكثـر ممـا كنـت، وذهبـت مـع زميلتـي بالمكتـب إلـى السـينما.

نتيجـة مبهـرة... سـعيد أنهـا تمـت بهـذه الطريقـة... والآن أريـد أن أعـرف إذا كان قـد حـدث تغيـر فـي عاداتـك بعـد ظهـور السـحابة أم لا؟

لم أفهم السؤال جيدًا.

مثـلاً هـل تغيـرت شـهيتك لـلأكل، أو اختلفـت عـدد سـاعات النـوم، أو انتابتـكِ نوبـات قلـق أو اكتئـاب أو خـوف؟

لا، لـم يحـدث لـي شـيئًا مـن كل هـذا، لكنـي أرى أحلامًـا كثيـرة وغريبة، لا أدري حتـى إن كانـت أحلامًـا أم كوابيسًـا، ولا أسـتطيع أن أجد لها تفسـيرًا، وأنـا لا أحـب الجـري وراء تفسـير الأحـلام لأنهـا متاهة.

أتفـق معـكِ... هـي متاهـة بالفعـل، أفضـل شـيء أن نتـرك الأحـلام تُفسـر نفسـها إن كان لهـا تفسـير... والآن أخبرينـي عـن عـدد المقربيـن لـكِ فـي الحيـاة، ومَـن فيهـم الأقـرب لـكِ؟

هـم قليلـون، لا يتعـدون عـدد أصابـع اليـد الواحـدة... لكـن أقربهـم لـي هـو عمـو مينـا جـاري، هـو رجـل كبيـر فـي السـن، لكنـه رسـام ماهـر، رسـم لـي اسـمي "شـروق" فـي لوحـة جميلـة... كان تـاج قـد أوصـاه علـيّ قبـل

موتـه، ويعتبرنـي مثـل ابنتـه.

هل للأستاذ مينا أولاد؟

ولـد واحـد، اسـمه مايـكل ويأتـي لزيارتـه علـى فتـرات متباعـدة، وأحيانًـا يأتـي هـو وزوجتـه نيفيـن وابنهمـا شـادي.

أريـدك يـا فـراق أن توسـعي دائرتـكِ الإجتماعيـة، اكتسـبي عـددًا أكبـر مـن النـاس وأدخليهـم الدائـرة... التدريـب الثانـي الـذي أعطيـه لـكِ هـو أن تعرفـي مـن أسـتاذ مينـا موعـد حضـور ابنـه مايـكل وأسـرته لزيارتـه، واشـتري لعبـة بسـيطة لشـادي وبعـض الحلـوى، أو اصنعـي بعـض الحلـوى بنفسـك إذا كنـتِ تجيديـن صنـع الحلـوى، واذهبـي لزيارتهـم وتقديمهـا لهـم، اقضـي معهـم أمسـية، واكتسـبي معـارف جُـدد، قومـي بإضافتهـم لرصيـدك الاجتماعـي.

تدريب شيق، سأقوم بتنفيذه بإن الله تعالى.

ممتـاز... وبمـا أن أسـتاذ مينـا رسـام كمـا قلـتِ لـي، فاطلبـي منـه أن يرسـمكِ، ليـس ملامـح الوجـه فقـط، بـل يرسـم مـا يـراه فيـكِ، كيـف أنـتِ كمـا يـراكِ... ربمـا يرسـمكِ علـى هيئـة فراشـة أو نجمـة أو وردة.

قاطعته قائلة:

أو سحابة.

وضحكت، وضحك هو الآخر، ثم أكمل:

والسحابة ستكون جميلة أيضًا.

سكَتَ قليلًا ثم قال لي:

اعقـدي صلـح مـع اسـمك يـا فـراق، فـي المـرة القادمـة أريـدكِ أن تقولـي لـي: أنـا شـروق وأنـا أيضًـا فـراق، الاسـمان أنـا... أيضًـا انفتحـي علـى العالَـم، اكتسـبي صداقـات جديـدة، سـافري، حبـي إن اسـتطعتِ ووجـدتِ الحـب المناسـب الـذي يليـق بـكِ.

خرجـت مـن عنـد دكتـور يوسـف وأنـا أشـعر بارتيـاح شـديد مـن

لقائـي الثانـي معـه، وعلقـت آخـر نصيحـة لـه بعقلـي وقلبـي (حبـي إن اسـتطعتِ)... أنـا أؤمـن أن الحـب هـو أكبـر مُنقـذ فـي العالَـم، يمكنـه أن يُنقذنـا مـن أعتـى المخاطـر... يجـب أن أبحـث عـن الحـب الـذي يليـق بـي، ويمكنـه أن يُنقذنـي، لكـن أيـن أجـده؟

فـي طريـق عودتـي، توقفـتُ عنـد متجـر كبيـر لألعـاب الأطفـال، واختـرتُ منـه سـاعة جميلـة متعـددة الاسـتخدامات، سـأُقدمها هديـة لشـادي حفيـد الأسـتاذ مينـا، والـذي يبلـغ مـن العمـر حوالـي ثمانـي سـنوات... أعجبنـي أيضًـا فـي المتجـر صنـدوق جميـل عبـارة عـن حصّالـة علـى هيئـة متاهـة، يتـم وضـع الهديـه بداخلهـا وعلـى الطفـل أن يقـوم بحـلّ المتاهـة والوصـول إلـى القفـل ليفتـح الصنـدوق ويصـل الـى الهديـة، أعجبتنـي فكرتهـا كثيـرًا، فاشـتريت ذات اللـون الأزرق، ووضعـت السـاعة بداخلهـا... اشـتريتُ أيضًـا مـن المتجـر بضـع أقنعـة مـن البلاسـتيك التـي يرتديهـا الأطفـال للعـب، اشـتريتُ أكثـر مـن شـكل راقـت لـي ملامحهـم؛ وكنـتُ فيمـا بعـد أرتـدي هـذه الأقنعـة فـي البيـت كـي أراهـا عندمـا أنظـر للمـرآة بـدلًا مـن السـحابة.

قبـل أن أصـل للمبنـى الـذي أسـكن فيـه، اشـتريتُ بطاطـا مشـوية، وقبـل أن أدخـل شـقتي، طرقـتُ بـاب أسـتاذ مينـا وأعطيتـه بعضًـا منهـا، وسـألته عـن أحوالـه، وعرفـت منـه موعـد زيـارة مايـكل وأسـرته لـه فـي نهايـة الأسـبوع، وأخبرتـه أنـي سـآتي لأُسـلم عليهـم عندمـا يحضـرون.

حاولـتُ أن أعمـل بنصيحـة الأخصائـي النفسـي وأشـغل قلبـي بحـب يليـق بـه، أردتُ أن أبحـث عـن حـب جديـد، لكـن أيـن ومَـن؟ الحـب لا يأتـي عندمـا نبحـث عنـه، الحـب يأتينـا فجـأة دون ميعـاد... هـذه نصيحـة تحتـاج لقَـدَر يتدخـل فيهـا كـي تتحقـق، ومـا علـيّ غيـر أن أنتظـر حـدوث هـذا القَـدَر.

فـي نهايـة الأسـبوع أعـددتُ صينيـة بسبوسـة بالقشـطة، وذهبـتُ بهـا

لشـقة الأسـتاذ مينـا، وكان هنـاك ابنـه مايـكل وزوجتـه نيفيـن وابنهمـا شـادي، أعطيـت شـادي الهديـة التـي فـرح بهـا كثيـرًا، وعانقنـي، وقبلنـي قُبلـة جميلـة، شـعرتُ وكأنـه طبعهـا علـى قلبـي وليـس علـى خـدي، ثـم انشـغل عنـا فـي حـل اللغـز لفتـح الصنـدوق والوصـول للهديـة... شـكرتني نيفيـن علـى الهديـة، وأخذتنـي معهـا للمطبـخ كـي نُحضـر الطعـام؛ هـا أنـا ذا أُدخـل فـي دائرتـي الاجتماعيـة نيفيـن وابنهـا شـادي وربمـا زوجهـا مايـكل.

تناولـتُ معهـم طعـام العشـاء، وأكلنـا بعدهـا البسبوسـة بالقشـطة التـي أحضرتهـا، وتحدثنـا فـي مواضيـع متفرقـة... كانـت أمسـية جميلـة امتـدت حتـى منتصـف الليـل، عـدتُ بعدهـا للمنـزل وأنـا سـعيدة بهـذه الحيـاة النابضـة التـي قطعـت صمـت يومـي وغيـرت ملامحـه، ورأيـتُ فـي هـذه الليلـة حُلمًـا جديـدًا مـن سلسـلة الأحـلام الغريبـة التـي أصبحـتُ أراهـا هـذه الأيـام... رأيـتُ وكأنـي أجلـس فـوق مائـدة طويلـة، تُنيرهـا شـموع بألـوان مختلفـة؛ أبيـض، أحمـر، أخضـر، أسـود، وأصفـر، كنـت فـي الحلـم أنـا الضيـف الوحيـد علـى المائـدة، وعليهـا خمسـة أوانـي مغطـاة، وكلمـا رفعـتُ غطـاءً تظهـر لـي محتويـات الإنـاء والتـي تتكـون مـن كلمـات مجسـمة، أخـذت أتنـاول هـذه الكلمـات وأضعهـا فـي فمـي، أمضغهـا جيـدًا فأشـعر بطعمهـا، الإنـاء الـذي كان بـه كلمـات السـعادة جـاء طعمهـا حلـوًا، والإنـاء الـذي كان بـه كلمـات الألـم كانـت مالحـة، والإنـاء الـذي كانـت بـه كلمـات الغضـب كان طعمهـا حامضًـا، والإنـاء الـذي كانـت بـه كلمـات الرحيـل كانـت مريـرة... وفـي منتصـف المائـدة كان هنـاك إنـاء بـه كلمـة واحـدة مـن حرفيـن (حـب)، تناولتهـا وقسـمتها لحرفيـن، وضعـت حـرف الحـاء أولًا فـي فمـي، ثـم البـاء، وكان للحرفيـن معًـا طعـم الزبـدة التـي تـذوب فـي الفـم، وتُعطـي أقصـى درجـات الشـعور باللـذة فـي تنـاول الطعـام.

في اليوم التالي في العمل كانت بالمكتب مفاجأة في انتظاري، حيثُ وجدتُ رحاب قد خلعت الحجاب الذي كانت ترتديه منذ أن عرفتها، نظرتُ إليها باندهاش، تطل من عينيّ العديد من الأسئلة التي قطعتها كلها بقولها:

لا تسألي.

لن أسأل، سأنتظركِ حتى تحكي لي من تلقاء نفسكِ.

وبالفعل، بعد يومين وجدتها تُحضر كوبان كبيران من "الكابتشينو"، وضعت أحدهما أمامي وأمسكت بالآخر في يدها، وبدأت تشرب منه وتحكي لي دون أن أسأل:

أنا ارتديت الحجاب منذ حوالي ثلاثة أعوام فقط، بعد أن مات أخي الوحيد، شعرتُ وقتها بهزة إيمانية قوية زعزعت بداخلي أشياءً كثيرةً، ودفعتني إلى أن أتقرب من الله بأي وسيلة كانت ظاهرية أم باطنية، وكان الحجاب هو الأسهل والأسرع، فارتديته حسب اعتقادي وقتها أنه وسيلة للتقرب من الله... لكن مع الأيام، بدأت قناعتي به تخفت، إلى أن تلاشت منذ فترة ليست بالقصيرة، وبالرغم من هذا لم يكن لديّ الشجاعة لخلعه، إلى أن وقفت وقفة صادقة مع نفسي، وأجبرتها على أن تحترم عقلي ورغباتي وقناعاتي، ولن يهمني نظرة أحد أو قول أحد... هذا هو الموضوع كله باختصار يا شروق.

أتفهم جيدًا وجهة نظرك هذه وكل ما قلتيه، لكن هل من الممكن أن ترتديه مرة أخرى في المستقبل؟

إذا استمرت قناعاتي وأفكاري كما هي الآن فلن أرتديه... لكن إذا تغيرت مع الأيام فقد أعود فأرتديه، مَن يدري كيف سيكون تفكيره ونظرته للأمور وللحياة بعد مثلًا عشرة أعوام من الآن؟

وماذا هو رأي والدكِ في خلعكِ للحجاب؟

والدي مُصاب بمرض الزهايمر، هو لا يتذكر أصلًا أني كنت أرتديه.

وماذا عن رأي بطل قصة حبكِ الحالية؟ بالمناسبة ما اسمه؟

تامر... هو الذي شجعني على تنفيذ رغبة وقرار أنا في تمام الاقتناع بهما، قال لي إن الحجاب ليس هو مقياس الإيمان، الأخلاق هي المقياس في المقام الأول... المشكلة يا شروق في نظرة المجتمع الذي يشن حربًا نفسية ضدي، ويعتبرني وكأني مذنبة ارتكبت جُرمًا، مع أني لم أؤذِ أحدًا أو أتسبب في الإساءة لأحد... تعرضتُ لردود أفعال هزلية من الآخرين، وأيضًا من بعض البنات والسيدات هنا في الشركة عند التقائي بهن في الممرات أو قاعة الطعام أو الاجتماعات، لكني أستخدم اللامبالاة حتى تمر هذه المرحلة ويتقبلوني كما أنا أو لا يتقبلوني، لن يهمني هذا في شيء.

مَن يسير عكس التيار يجب عليه أن يدفع الثمن.

نعم بالضبط كما قلتِ... المهم أن يكون الإنسان في تصالح مع نفسه، وليذهب المجتمع بآرائه وغضبه إلى حيث يريد.

والأستاذ ربيع، ماذا كان تعليقه؟

أسعده كثيرًا قراري، وقال لي أني أجمل هكذا وأكثر ذكاءً... لا أعرف ما هي علاقة الذكاء بالشَعر، لكن هذا هو رأيه، وقد راق لي كثيرًا.

رحاب مهندسة مدني، هي أيضًا لا تعمل مثلي في مجال تخصصها، لكنها ذكية جدًا ومرحة ولماحة، وأنتقدها دائمًا في أنها لا تستقر في محطة حب واحدة، فهي تخرج من قصة حب لترتمي في أحضان قصة أخرى، وكثيرًا ما تشاكسني كلما كان لدينا بعض أوقات فراغ أثناء اليوم في العمل وتقول لي: "ألا يوجد في الأفق بوادر حب جديد؟".

حكيت لها عن كل حب وقعت فيه واستكثرته عليّ الأيام، مات الحب الأول قبل أن يُولد، ومات الثاني قبل أن يكتمل، فقالت لي:

الحـب لا ينتهـي مادمنـا علـى قيـد الحيـاة؛ لا تقلقـي، لا بـد وأن يأتـي يومًـا حـب جديـد.

لسـتُ قلقـة، ولسـتُ حتـى فـي انتظـار أي حـب جديـد... أصبحـتُ أخشـى مـن المـوت علـى أي حـب جديـد قـد يأتينـي.

12

اليـوم أكـون قـد أكملـت ثلاثـة أشـهر وأنـا بوجـه سـحابة... انقطعـتُ عـن الذهـاب للمعالـج النفسـي بعـد أن اتبعـت التدريبـات التـي أعطاهـا لـي ولـم يجّـد جديـد فـي مشـكلة وجهـي، تقبلتـه أحيانًـا وتجاهلتـه فـي أحيـان أخـرى، ووقفـتُ كثيـرًا أمـام المـرآة وتسـائلت: لمـاذا هـذه السـحابة فـي وجهـي؟ ولمـاذا أنـا؟ لا بـد وأنهـا قـد جـاءت هنـا عـن طريـق الخطـأ، فالسُـحب مكانهـا الوحيـد هـو السـماء وليـس وجـوه البشـر... وفـي أوقـات كثيـرة أخشـى أن تتطـور حالتـي؛ فمثـلًا إذا غضبـتُ قـد يخـرج مـن وجهـي بـرق يُصيـب الآخريـن فيعمـي أبصارهـم، وإذا ضحكـتُ قـد يخـرج مـن فمـي رعـد يصـم آذانهـم، وإذا بكيـتُ قـد أُمطـر فأُغرقهـم... بوجـه علـى هيئـة سـحابة، قـد أُصبـح خطيـرة فـي أي وقـت.

رأيـت هـذه الليلـة حُلمًـا غريبًـا، كنـت فـي البيـت وكان هنـاك آخـرون يعيشـون فيـه، أسـرة مكونـة مـن سـبعة أفـراد: الأب والأم وثلاثـة أولاد وبنتـان... جميعهـم لا يرونـي، ولا يشـعرون بوجـودي، وأنـا أتنقـل فـي البيـت وأشـاهد كل مـا يفعلونـه، وأسـمع كل مـا يقولونـه... فـي المطبـخ كانـت الأم تطهـو الطعـام ومعهـا إحـدى ابنتيهـا تسـاعدها، فتـاة جميلـة ربمـا لـم تكمـل العشـرين مـن عمرهـا بعـد، جذبتنـي الرائحـة، فوقفـتُ في المطبـخ أتابعهمـا وهمـا تعـدان الطعـام، الأم أمـام الموقـد تقـوم بتحميـر البصـل وهـي تدنـدن بكلمـات أغنيـة دارت الأيـام لأم كلثـوم: (وصفـوا لـي الصبـر لقيتـه خيـال وكلام فـي الحـب، كلام فـي الحـب، يـا دوب يـا دوب ينقـال)، والبنـت تقـوم بتقطيـع بعـض الخضـروات... تركتهمـا فـي المطبـخ وذهبـت للصالـة، حيـث كان الأب يجلـس أمـام التليفزيـون المفتـوح وهـو لا يتابـع شـيئًا ممـا يُعـرض عليـه، لأنـه يُمسـك بجريـدة ومنهمـك فـي قرائتهـا... تركتـه وفتحـت إحـدى الحجـرات التـي كان فيهـا الأولاد الثلاثـة،

الحجرة بها سرير كبير وآخر صغير ومكتبان، أكبرهما مستلقي على السرير الصغير، يُقلب صفحات مجلة، نظرت معه في المجلة التي كانت في يده، وقد كانت مجلة أزياء نسائية، صور فتيات جميلات يعرضن ملابس زاهية الألوان، تركته مع مجلته واقتربت من الولدين الآخرين اللذين كانا يجلسان على المكتب، وقد اقتربت رؤوسهما وهما يهمسان، قربت رأسي منهما حتى أسمع ما يقولانه، وقد كانا يخططان لعمل مزحة سخيفة في أحد أصدقائهما، يقول الأول للثاني:

سنُغطى الحفرة بورق كارتون، وعندما يقع فيها سنقترب منه ونضحك عليه.

ويرد الثاني عليه:

وبعد ذلك نُخرجه منها ونقول له: "كده نبقى خالصين"... ونذهب بعدها نحن الثلاثة للسينما.

تركتهما لخططهما وذهبتُ للحجرة الثانية، والتي بدا أنها قد تم اقتسامها لحجرتين، حجرة للأم والأب وأخرى أصغر للبنتين، في حجرة البنتين كان هناك سريران صغيران ومنضدة في إحدى الجوانب، وعلى سرير منهما تجلس بنت صغيرة في حوالي العاشرة من عمرها، بضفيرة شعر ذهبية اللون وعينين تميلان للأخضر، تضع أمامها على السرير بعض الألعاب والصور والأقلام الملونة، تتفحصهم وتقوم بتغيير ترتيبهم على السرير... تركتها وعدتُ للصالة، جلستُ بجوار الأب الذي مازال يقرأ في الجريدة، وأنا أتمنى لو كان لي أسرة مثل هذه أعيش بينها... إنها أسرة عادية، أعتقد أيضًا أنها أسرة سعيدة، لكن لماذا أنا في الحلم هنا معهم؟

حاولتُ أن أتحدث مع هذا الرجل المنهمك في قراءة الجريدة، لكنه لم يكن يسمعني ولا يشعر حتى بوجودي، جذبت الجريدة من يده لكنها ظلت في مكانها... ذهبت لحجرة الأولاد وأخذت أصيح

فيهم، لكن دون أن يلتفتوا إليّ... على طرف السرير جلست بجوار البنت الصغيرة، وحاولتُ أن أُبعثر الألعاب التي كانت عليه، لكن لم يحدث شيئًا، لم يكن لتحريكي الأشياء أي تأثير، ظلت كما هي مكانها... في المطبخ قلبت الأواني وصنعت بها ضجيجًا عاليًا، لكن ظلت الأم تدندن بكلمات الأغنية بصوت أعلى قليلًا من ذي قبل (وملينا الدنيا أمل، أمل وحنان) وهي تضع الخضروات وقطع الدجاج في القدر على النار، وكانت الفتاة تغسل المواعين... مددتُ يدي وتذوقتُ الطعام، فلم يمنعني أحد، أمسكتُ كوبًا زجاجيًا وألقيتُ به على الأرض، فلم ينكسر.

كان الليل لا يزال في كامل عتمته عندما استيقظتُ من ذلك الحلم الغريب، بعرق على الجبين وجفاف في الفم، تناولتُ كوب الماء من جواري، وشربتُ منه قليلًا، وأخذتُ أفكر في هؤلاء الذين رأيتهم في هذا الحلم، مَن هم؟ ولماذا كنتُ أتابع حياتهم؟... إنه نفس بيتي هذا الذي أعيش فيه، نفس الحجرات والصالة والمطبخ والحمام، هل من الممكن أنهم كانوا يعيشون هنا قبل أن أسكن أنا في هذا البيت، وقبل أن يسكنه تاج، ثم جائني طيفهم في المنام، لكن لماذا؟ ماذا يريدون مني؟

قمتُ من مكاني كي أذهب للحمام، لكني عندما مررتُ بجوار المرآة، لمحتُ وجه شخص غريب، ليست السحابة ولستُ أنا... عدتُ بخطواتي للوراء حتى أصبحتُ أمام المرآة، وقد صعقني ما شاهدته، كان وجهي عبارة عن وجه فتاة لا أعرفها، عينان سوداوتان، شفتان مكتنزتان، أنف صغير، خدود حمراء، بشرة خمرية... دققت النظر أكثر فعرفتها، إنها الفتاة التي كانت في الحلم مع أمها في المطبخ، لكن ماذا يفعل وجهها في مكان وجهي؟

نفضتُ رأسي بشدة حتى أُسقط عن عينيّ ما أراه، لكنه لم يسقط،

ذهبت للحمام فغسلت وجهي كي تزول ملامح تبعتني من مجرد حلم، لكنها لم تزُل... فحصتُ باقي جسدي جيدًا خوفًا من أكون قد تم استبدالي بالكامل وليس ملامح وجهي فقط، لكن لم يكن هناك شيئًا قد تغير فيّ غير وجهي... تحدثت للمرآة:

مَن أنتِ؟ ماذا تريدين؟

كنتُ أتكلم فلا تتحرك الشفتان في المرآة، أسمع صوتي فقط لكني لا أرى حركتهما أمامي.

جلستُ في الصالة في حالة ذهول، هل أنا أدخل مرحلة جديدة من مرض نفسي أم ماذا؟ هل هذه هلاوس بصرية أم خيال أم حقيقية أم أية لعنة هذه التي أصبحتُ عليها؟ هل سيراني الناس الآن بوجه غير وجهي؟ وإذا حدث هذا، فكيف سأتعامل معهم؟ تحت أي اسم وبأية شخصية... حتى الصباح وأنا أتخبط في أفكار لا نهاية لها، وللحظة اشتقت لوجهي السحابة، على الأقل أصبح مألوفًا بالنسبة لي، ولا يخص أحد غيري.

وبمجرد أن طلع النهار ذهبت لشقة أستاذ مينا أريد أن أتأكد كيف يراني الناس الآن؟ بوجهي أم بوجه سحابة أم بوجه فتاة لا أعرفها؟

صباح الخير يا عمو مينا، هل ترى السحابة في وجهي أم ماذا ترى؟

صباح النور يا شروق، ما هذا السؤال الصباحي الغريب؟... أنا لا أرى سحابة ولا أرى أي شيء آخر، أرى وجه شروق الذي أعرفه.

اطمأننت إلى أن وجهي الحقيقي مازال الآخرون يرونه، شكرته وعدت لشقتي دون أي تفسير آخر قد أعطيه له، فأنا لا أملك حتى تفسيرًا لنفسي... وقفتُ أمام المرآة والتقطت صورة لي بهذا الوجه الذي ليس وجهي.

ذهبتُ للعمل، وكنتُ كل عدة ساعات أُخرج المرآة التي أحتفظ

بهـا فـي أحـد الأدراج وأنظـر فيهـا، فـأرى وجـه تلـك الفتـاة التـي كانـت فـي الحلـم والتـي لا أعـرف حتـى اسـمها... لـم أكـن أدري مـا هـي المرحلـة التي أنـا مُقبلـة عليهـا مـع اختفـاء السـحابة وظهـور وجـه ليـس وجهـي، لـذا قـررتُ أن آخـذ أجـازة لمـدة أسـبوع حتـى أعتـاد علـى حالتـي الجديـدة بوجـه غيـر وجهـي... أخبـرت رحـاب بهـذا ثـم ذهبـتُ لمكتـب أسـتاذ ربيـع الـذي أصبحَـت علاقتنـا أقـل حِـدة ممـا قبـل، بعـد أن عملـت لديـه سـكرتيرة جديـدة غايـة فـي الجمـال والأناقـة:

- أسـتاذ ربيـع أنـا تقريبًـا انتهيـت مـن الجـزء الخـاص بـي فـي المشـروع الجديـد، وسـأُنهي المـادة العلميـة المطلوبـة للتدريـب خـلال هـذا الأسـبوع.

ممتـاز يـا شـروق، أنـتِ بالفعـل مهندسـة متفوقـة... متـى سـيكون تدريـب الموظفيـن علـى البرنامـج الجديـد؟

بمجـرد أن ينتهـي مهنـدس أميـر مـن الأجـزاء الأخـرى التـي يعمـل عليهـا، أعتقـد فـي خـلال ثلاثـة أسـابيع أو شـهر علـى الأكثـر.

أريـدكِ أنـتِ أن تقومـي بإعطـاء التدريـب للموظفيـن علـى البرنامـج الجديـد.

وهـو كذلـك، لكنـي أريـد أن آخـذ أسـبوعًا أجـازة، وسـأُنهي خلالـه المـادة العلميـة المطلوبـة للتدريـب وأنـا فـي البيـت.

خير، هل أنتِ بخير؟

نعم بخير، لكني بحاجة لهذه الأجازة.

كما تشائين، أرسلي لي إيميل بأيام الأجازة وسأوافق عليها.

أشكرك أستاذ ربيع.

عندمـا عـدتُ مـن العمـل، وفـي الطابـق الأول وأنـا أصعـد السـلم، فُتـح بـاب المنـزل المجـاور للسـلم والـذي ليـس لـي أيـة علاقـة بأصحابـه، وخـرج منـه رجـل فـي حوالـي الثلاثينـات مـن عمـره، وعندمـا وقـع نظـري

عليه تحرك شيء ما في قلبي، وكأني كنت أحب هذا الرجل من قبل، مع أني لا أذكر أني رأيته مرتين متتاليتين من قبل؛ وقفتُ مكاني أنظر إليه وأنا لا أدري ما هذا الشعور الذي غمرني بمجرد أن رأيته، مر هو بجواري وابتسم لي محييًا برأسه، ثم تابع طريقه فازدادت ضربات قلبي.

صعدتُ درجات السلم جريًا حتى الطابق السادس، وأنا أحاول أن أهرب من هذا الشعور الذي باغتني فجأة بمجرد أن رأيت ذلك الرجل، دخلت البيت ووقفت أمام المرآة أنظر لوجه الفتاة الذي يحتل وجهي، وأنا لا أدري هل لها علاقة بهذا الذي حدث أم ماذا؟ لا بد وأن لها علاقة، هل وجهها نقل لي مشاعرها؟ هل كانت تحب هذا الرجل؟ أي خيال هذا الذي أصبحت أحياه.

رأيتهم مرة أخرى في الحلم، حلم أقصر من حلم الليلة الماضية، كانت الأم والأب في حجرتهما يتناقشان حول جهاز البنت الكبرى، وكيف سيستعدان لشراءه... وفي اليوم التالي وبمجرد أن استيقظتُ من النوم، ذهبتُ مُسرعة للمرآة، وأنا أتمنى أن تكون السحابة قد عادت لوجهي، لكن مفاجأة جديدة كانت في انتظاري، كنتُ أقف أمام المرآة أنظر أمامي لوجه المرأة التي كانت في الحلم، الأم التي كانت في المطبخ، اختفى وجه الفتاة وظهر وجه أمها... ماذا تريد مني هذه الأم هي الأخرى باحتلال ملامحها لوجهي؟

التقطتُ صورة لوجهي الجديد الذي هو وجه الأم التي لا أعرف اسمها أو حتى عمرها، ثم أردتُ أن أُوقف التفكير في هذا الذي يحدث لي، جلستُ لساعات أعمل في إعداد المادة العلمية المطلوبة للتدريب في العمل، ثم دخلت المطبخ وأخذت أشغل نفسي في إعداد وجبة طعام صعبة وتحتاج لوقت ومجهود، وفوجئت وأنا أقوم بإعدادها بأني كنت أدندن بجزء من أغنية دارت الأيام (وهلّ الفجر

بعد الهجر بلونه الوردي بيصبح)، إنها نفس الأغنية التي كانت تدندن بها الأم في الحلم وهي تقوم بإعداد الطعام!

وفي المساء انتظرتهم مرة أخرى في الحلم؛ وقد كان، رأيتُ الابن الأكبر وهو يكتب خطابًا كله حب وشوق لحبيبته، جلست بجواره في الحلم وقرأت بعضًا مما كتب في خطابه (عندما تصلكِ قصيدة جديدة مني؛ انظري فيها جيدًا... ستجدين أنكِ بداخلها... متوارية خلف كل حرف، ونائمة بداخل كل معنى... صورِكِ التي تزينها وليست الصور الجمالية... قلبكِ الذي يدق بداخلها وليس نبض الحروف).

في اليوم الثالث، تجمدت نظرتي في المرآة وأنا أرى وجهي وقد تحول لوجه أحد أولاد تلك الأسرة التي كانت في الحلم، وجه الابن الأكبر الذي بدا في العشرينات من عمره، عينان شديدتي السواد، رموش طويلة، حاجبان كثيفان، وذقن غير محلوقه.

لم أكن أدري هل أضحك أم أبكي أم ماذا أفعل وسط كل هذا الذي يحدث لي... وانتهى بي الحال إلى أن ألتقطت صورة لشكلي الجديد، جسم امرأة ووجه رجل.

رأيتهم مرة أخرى في الحلم وهم يلتفون حول التليفزيون ويشاهدون أحد أفلام إسماعيل ياسين القديمة، ويضحكون بشدة، جلست أشاهد معهم وأضحك مثلهم وهم لا يسمعونني، كنت على مقربة من الأب، وجاءت البنت الصغيرة لتجلس على رجليه وتطلب منه أن يُحضر لها أيس كريم... وفي اليوم الرابع، أصبحتُ بوجه البنت الصغيرة، وقد اعتدت هذه اللعبة التي تلعبها الأيام معي، ولم يعد يفزعني وجهي المختلف كل يوم عندما أنظر في المرآة... كانت عينيّ البنت غاية في الجمال بلونهما الأخضر الهادئ الجميل، لكن لم يكن لي شعر ذهبي كما رأيت شعرها في الحلم، كنت مازلت أحتفظ بشعري الأسود... كم أحببت نفسي وأنا بوجه طفلة

جميلة كهذه، التقطتُ لها أكثر من صورة: وأنا أضحك، وأنا أُكشر، وأنا أندهش.

اشتريت طابعة ألوان وقمت بطباعة الصور حتى تكون بنفس الألوان، ثم ذهبت في المساء لزيارة الأستاذ مينا، أخذت معي صينية جلاش باللحمة المفرومة كنت قد أعددتها خلال اليوم، وأخذت أيضًا بعض الصور التي التقطتها للوجوه المختلفة التي تظهر مكان وجهي منذ عدة أيام... تناولنا العشاء معًا، وعرضت عليه الصور فقال لي:

صور جميلة لكِ يا شروق.

إذًا فكما توقعت، لا أحد يمكنه رؤية هذه الوجوه غيري... ثم فتحت معه حوارًا في محاولة مني لمعرفة تاريخ هذه الشقة التي أعيش فيها:

منذ متى وأنت تسكن في هذه الشقة يا عمو مينا؟

منذ أن تزوج مايكل وتركت له شقتي القديمة التي هي أكبر وفي مكان أرقى من هذا، هو يحتاجها أكثر مني، وأنا تكفيني هذه الشقة البسيطة أقضي فيها باقي العمر الذي لم يبقَ منه الكثير.

ربنا يعطيك طولة العمر... هل تعرف مَن كان يسكن هذه الشقة التي أعيش فيها قبل تاج؟

لا، عندما جئت لم يكن هناك أحد بهذه الشقة ثم بعد حوالي عام سكن فيها تاج... هل سمعتِ شيئًا عن هذه الشقة؟

شيء مثل ماذا؟ أخبرني ماذا تقصد؟

سمعت مرة أنه كانت تسكنها عائلة مات كل أفرادها خنقًا بغاز البوتجاز.

شعرت وأن قلبي قد توقف عن النبض للحظات وأنا أسمع ما يقوله الأستاذ مينا... هل تلك الأسرة هي التي رأيتها في الحلم، وأفرادها يتناوبون على احتلال ملامح وجهي؟

أرجوك يا عمو مينا أخبرني أكثر عن تفاصيل هذه الحكاية.

لا أعرف أكثر مما قلته لكِ، أنا لم أكن أسكن هنا عندما حدثت هذه الحادثة... لماذا أنتِ تهتمين بموضوع قديم كهذا لا أحد يذكره.

فقط لديّ فضول لكي أعرف... مَن كان هنا من سكان المبنى عند وقوع هذه الحادثة؟

أعتقد الست سعدية في الدور الخامس... لكنها عجوز جدًا، قد تقترب من التسعين من عمرها، وربما لا تتذكر الماضي.

جائوني مرة أخرى في الحلم وهم يتناولون الطعام، ويتناقشون حول درجات امتحانات الأولاد المراهقين... وفي اليوم الخامس تحول وجهي لوجه أحد الأولاد المراهقين في الحلم، وفي اليوم السادس تحول وجهي لوجه الولد الآخر... أصبحتُ لا أُشبه أحدًا، في كل يوم لديّ ملامح وجه مختلفة، على الأقل أصبح لي ملامح بعد أن اختفت السحابة... قررت أن أقوم بزيارة الست سعدية في الدور الخامس، وسؤالها عن تلك الأسرة التي كانت تسكن في هذه الشقة، لا بد وأن لديها أخبار قد تُطفئ نار الحيرة التي تأكلني من اقتحام هذه الأسرة الميتة لأحلامي ووجهي.

تعيش مع الست سعدية كما عرفت من أستاذ مينا، ابنتها المطلقة غادة ومعها طفلتين، فتحت لي غادة الباب وبدا أنها تعرفني:

أهلًا أهلًا بشمهندسة فراق، أم أقول شروق؟ خطوة عزيزة... تفضلي.

دخلت وأنا لا أدري من أين تعرفني وتعرف اسمي السابق واسمي الحالي، وأنا ليس لي تعامل مع معظم السكان هنا؛ وكأنها شعرت بما أفكر فيه فأجابتني دون أن أسأل:

أنا أعرف حضرتك من زمان، منذ أن سكنتِ هنا في الدور السادس... لكن لم تكن هناك فرصة لنتعارف... أنا صديقة أم سامح

وهـي تحكـي لـي عنـكِ كثيـرًا، وتحبـك أيضًـا.

ابتسـمت لـكل هـذا الشـرح الـذي شـرحته، ونظـرت لطفلتيهـا وهمـا تلعبـان فـي أحـد أركان الصالـة:

أشكرك يا غادة، جملية بناتك، كم عمرهما؟

سُها سبع سنين، وسلوى خمس سنين.

الحقيقة أنا جئت أسأل ست سعدية عن حكاية قديمة.

أمي لا تتذكر شيئًا الآن... الحمد لله أنها تتذكرني أنا والبنات.

ربمـا أنـتِ تتذكريـن هـذه الحكايـة... هـل تسـكنون هنـا فـي هـذه الشـقة مـن سـنين طويلـة؟

أنا مولودة في هذه الشقة، ثم عدتُ إليها بعد طلاقي.

هـل تذكريـن الأسـرة التـي كانـت تسـكن فـي الشـقة التـي أعيـش فيهـا الآن، وماتـوا فيهـا بغـاز البوتجـاز؟

طبعًـا أذكرهـم، اللـه يرحمهـم جميعًـا، بنتهـم أمـل كانـت فـي نفـس المدرسـة الثانويـة التجاريـة التـي تعلمـت فيهـا، كنـا فـي العـام الأخيـر عندمـا حدثـت هـذه الحادثـة الفظيعـة.

أمـل... أكمـل الاسـم الصـورة الجميلـة لوجههـا الـذي ظـل يحتـل وجهـي ليـوم بأكمله:

هل تعرفين تفاصيل ما حدث لهم؟

لماذا تسألين؟ إنها حكاية قديمة جدًا.

لقد سمعتُ بها مؤخرًا، ولديّ فضول لأعرف الحكاية كلها.

لقـد سـكنوا فـي هـذه الشـقة حوالـي عـام فقـط قبـل الحـادث، لذلـك لا يعرفهـم الكثيريـن فـي المنطقـة، أنـا كنـت أعـرف أمـل لأننـا كنـا نذهـب للمدرسـة ونعـود منهـا معًـا... والدهـا كان يعمـل فـي وظيفـة حكوميـة ووالدتهـا "أبلـه مديحـة" لـم تكـن تعمـل.

لقد عرفت اسم الأم أيضًا، مديحة... وأريد أن أعرف الباقي.

والأب، ماذا كان اسمه؟ وماذا عن أسماء باقي الأسرة يا غادة؟

الأب كان اسمه عبد السلام، البنت الصغيرة كانت في إبتدائي واسمها حنان... والابن الأكبر كان في كلية الحقوق واسمه عاطف... وحازم كان في الاعدادية ووائل كان في أولى ثانوي.

شكرت غادة على كل هذه المعلومات القيّمة، وتركتها مع وعد بزيارة أخرى... وقبل أن أغادر سألتها عن والدتها، وهل يمكنني أن أُسلم عليها؛ فدخلت لإحدى الحجرات وعادت تجر كرسيًا متحركًا عليه سيدة طاعنة في السن، انطفأ بريق عينيها لكن نظرتها ثابتة، اقتربت منها وسلمت عليها، فضيقت عينيها وهي تقول لي: "مين؟ صفاء؟"... ربت على يدها وتركتها واتجهت للباب وأنا أسأل غادة عمَن تكون صفاء، فقالت إنها أختها الكبيرة المتزوجة والتي تعيش في الكويت، وأمها تعتبر كل الآخرين صفاء.

صعدت درجات السلم وأنا أفكر في أن الأم قالت لي في الحلم أسماء ابنتيها وهي تغني (وملينا الدنيا أمل وحنان)... كم من رسالة أخرى في تلك الأحلام لم أفهمها؟

زيارتهم الأخيرة لي في الأحلام كانت مقتصرة فقط على الأب، الذي كان يقوم بجمع بعض الأوراق ويضعهم في حقيبة بلاستيكية شفافة، كان يُغلف أيضًا بعض شرائط تسجيلية بأغلفة بلاستيكية، لم أكن أعي في الحلم ماذا يفعل ولماذا، وعندما استيقظت في اليوم السابع، وجدت أني أحمل وجه الأب، الأستاذ عبد السلام، بشرة سمراء، عينان حزينتان، شارب خفيف، وتجاعيد كثيرة... نظرت إليه طويلًا في المرآة، سألته ماذا يريد مني هو وأسرته؟ ما الذي يريدون قوله لي؟ ماذا يمكنني أن أقدم لهم؟ كيف أستطيع أن أساعدهم؟ لكن لم يأتيني أي جواب، فقط عينان حزينتان تنظران لي في المرآة، وشفتان مضمومتان لا تقولان شيئًا.

مع ظهور هذه الأحلام أصبحت أتجول كثيرًا داخل البيت، أدخل الحجرات والمطبخ والصالة والحمام، أحاول أن أستشعر وجودهم السابق في المكان، ربما تخبرني الحوائط أو السقف أو الأرض بما حدث لهم، بما يريدونه مني... لكني لم أشعر بشيء... هل يمكنني أن أستخلص من ذرات الهواء ضحكات قديمة كانت هنا منذ أعوام طويلة؟ هل أستطيع أن أجمع من فوق الحوائط نظراتهم التي وقعت عليها؟ هل في مقدور المكان أن يحتفظ بشيء مما حدث فيه من أحاديث، مشاعر، حياة؟

انتظرت بصبر نافذ اليوم الثامن، ترى هل سيعاودون الكرّة مرة أخرى ويتناوبون بوجوههم على وجهي أم ماذا سيحدث؟ لكن في اليوم الثامن عادت السحابة لقواعدها سالمة، وفي اليوم الذي يليه ظللتُ بوجه السحابة... انسحبت كل الوجوه التي احتلت وجهي وبقيت السحابة، وبقيت علامات الاستفهام التي لا أجد لها إجابات.

من الصور السبعة التي التقطتها لي وأنا بهذه الوجوه المختلفة، جمعتهم في صورة واحدة، أصبحت كل الأسرة أمامي، بالطبع إذا شاهد أحد غيري هذه الصورة سيرى نفس وجهي يتكرر سبع مرات في صورة واحدة، فأنا الوحيدة التي يمكنني رؤيتهم... أردت أن أتأكد أنهم نفس الأشخاص الذين سكنوا في هذه الشقة من قبل، لذا فقد اشتريت علبة شيكولاته وبعض ألعاب الحروف والحيوانات، وذهبت مرة أخرى لغادة، شكرتني على الهدايا التي فرحت بها طفلتيها، ثم سألتها إن كان لديها صورة لصديقتها أمل، أو صور لباقي الأسرة:

صورة أمل نعم، لكن لا أدري هل لديّ صور لباقي الأسرة أم لا.

ثم فكّرَت قليلًا وقالت:

انتظري، لقد حضرت مرة حفلة ذكرى يوم ميلاد حنان، ولي معهم بعض الصور؛ سأُحضر ألبوم الصور لأريكِ إياها.

أحضرت ألبوم صور قديم، وظلت تبحث فيه، ثم أخرجت لي خمس صور، اثنان لها مع أمل وثلاثة من الحفلة، تظهر فيها حنان والأم والأب وأحد الأولاد المراهقين، كانت هي صورهم بالضبط، هؤلاء الذين رأيتهم في الحلم والتصقوا بوجهي لمدة أسبوع بأكمله... شكرتها وطلبت منها أن تسمح لي أن ألتقط صور بكاميرة الموبايل لهذه الصور؛ فسألتني:

لماذا تهتمين بهذه الحكاية القديمة بهذا الشكل؟

مجرد فضول.

أخشى أن تكوني قد عثرتي في الشقة على كنز خاص بهم، وتريدين أن تعرفي حكايتهم.

ثم ضحكت وضحكت معها، وقلت لها في محاولة لمعرفة أي معلومات أخرى عنهم:

هل كانت أمل تحكي لكِ عن أسرتها أو عن أسرارها.

كل أسرارها كانت معي، وكل أسراري كانت معها... كانت تأتي لتذاكر معي هنا ونظل نحكي حتى وقت متأخر من الليل، أحيانًا كانت تنام هنا معي.

تبدو جميلة في الصور... وأنتِ أيضًا جميلة يا غادة.

لسنا أجمل منكِ يا بشمهندسة... أمل كانت تحب ابن الجيران، وأنا كنت أحب ابن عمي، هي ماتت وأنا أصبحت مُطلقة... هل ترين الحظ.

كانت تحب ابن أحد الجيران هنا في المبنى؟

نعم، الأستاذ حسن في الدور الأول، وهو كان يحبها أيضًا، لكنه أحب غيرها بعد أن ماتت وتزوج ولديه الآن ثلاثة أبناء.... سُنة الحياة، الحي أبقى من الميت.

إذًا شعوري عندما رأيته بوجه أمل كان حقيقي، كان صادقًا... شعرت

برأسي يدور من كل هذا الذي عرفته، فتركت غادة وصعدت لمنزلي.

انتظرتهم يحضرون مرة أخرى، أن يقولوا ولو بالإشارة ماذا يريدون مني، ما هي حكايتهم، وما هو سر موتهم الجماعي هذا، لكن لم يأتوا مرة أخرى في الحلم، ولا ظهروا على صفحة وجهي، وظلت السحابة هي وجهي الذي اعتدت عليه.

في دفتر جديد بغلاف أسود اللون، كتبت كل ما عرفته عن هذه الأسرة، كل الأحلام التي رأيتهم فيها، تفاصيل وجوههم التي عشت بها أسبوعًا بأكمله... ثم وضعت وسط الدفتر الصور التي التقطتها لوجوههم التي صاحبت وجهي، وتلك الصور التي التقطتها من صور غادة القديمة، ثم خبأت الدفتر في أحد الأدراج، في انتظار أن يظهروا مرة أخرى، فأكتب عنهم المزيد في هذا الدفتر.

13

أدخل شهري الرابع الآن وأنا بدون ملامح وجه، مازلت بملامح سحابة؛ لم يفدني الطب النفسي بشيء، غير أدوية رفضت أن آخذها، أما علم النفس فقد ساعدني على أن أتقبل وجهي كما هو، لكنه لم يستطع أن يُعيده إليّ، أراحتني نصائح وتدريبات الأخصائي النفسي والتي قمت بتنفيذها، لكنها في النهاية مثل قناع يُخفي فقط بشاعة الحقيقة.

اشتريتُ مرآة مقعرة تقوم بتكبير الصورة، ومن وقت لآخر أنظر فيها حتى أرى أدق تفاصيل وجهي السحابة، ربما كانت جزيئاتها تتحرك وأنا لا أدري، تترقرق على سطحها قطرات ماء وأنا لا أرى، ربما تظهر فيها بعض البثور الصغيرة التي لا تعكسها المرآة العادية، أو بعض التجاعيد السحابية... ترى هل تتقدم السحابة في العمر ويخفت جمالها مع جريان السنين؟

مع كوبيّ شاي وقطعتين من كيكة البرتقال، تحدثت مرة أخرى مع أستاذ مينا في موضوع وجهي السحابة، أخبرته عن الأخصائي النفسي الذي ذهبت إليه، وأنه رغم أني اتبعت نصائحه ونفذت تدريباته التي طلبها مني إلا أن وجهي مازال مختفيًا... ثم تذكرت أن المعالج النفسي قال لي في المرة الثانية التي ذهبت فيها إليه أن أطلب من أستاذ مينا أن يرسمني كما يراني وعلى الشكل الذي أُشبهه، لكني أريده أن يرسمني كما أنا وكما يراني في الحقيقة وكما يرى ملامح وجهي؛ وعلى الفور نظرت إليه وطلبت منه أن يرسمني، ماذا لو رسم ملامح وجهي، هل سأراها أم سأرى السحابة؟

بالفعل أحضر أستاذ مينا لوحة جديدة، وبدأ يرسم ملامح وجهي، وكان كلما رسم جزءًا يظهر لي في اللوحة قطعة من السحابة، شعرت

بالاختناق فحتى الرسم متآمر مع السحابة... لم أستطع أن أشاهد وجهي وهو يتكون سحابة مكتملة الملامح، فتركته وعدت للبيت، وبعد يومين وجدته يُحضر لي لوحة وهو يقول:

هذه أنتِ يا شروق... لقد رسمتكِ كما أراكِ وليس كما ترين نفسكِ.

لقد نفذ ما طلبه مني المعالج النفسي دون أن أخبره... فتحت اللوحة فوجدت زهرة توليب بنفسجية اللون، لها ساق طويلة ويتفرع منها أربعة أوراق خضراء... كانت اللوحة بالألوان الزيتية، والزهرة فيها ساحرة بلونها البنفسجي الفاتن، أقل ما يُقال عنها أنها تحفة فنية:

لوحة بديعة يا عمو مينا، حضرتك فنان موهوب... لكن لماذا تراني وكأني زهرة توليب؟

لأنها تشبهكِ في أناقتكِ وجمالكِ وحيويتكِ ونضارتكِ... وأيضًا لأن زهرة التوليب تعني الغموض.

الغموض؟ هل أنا غامضة لهذه الدرجة؟

ليس لهذه الدرجة، ولكن لدرجة ما.

هل أنا غامضة لدرجة ما؟ ترى لأي درجة يراني الناس غامضة؟ لم أسأله المزيد من الأسئلة لكني نظرت حولي لحوائط الصالة وقلت له:

سأُعلقها هنا، بجوار لوحة الشجرة التي رسمتها لتاج.

المهم كلما نظرتِ إليها أن تتذكري أنكِ جميلة مثلها، روحكِ تشبهها.

ذهب أستاذ مينا وقمت بتعليق اللوحة، ثم ابتعدت عدة خطوات للوراء، ووقفت أتأملها، وغصت بعينيّ في تفاصيلها وألوانها، ثم شعرت بصوت والد وجدان يمر بأذني وهو يقول (أنتِ تشبهين زهرة)، وها هو أستاذ مينا يرسمني على شكل زهرة، ترى ما هي

حكايتي مع الزهور؟

في اليوم التالي، عند وصولي المكتب استدعاني أستاذ ربيع، ذهبت لمكتبه ولم تكن السكرتيرة في مكانها لذا فقد طرقت الباب ودخلت لأجدها هناك تقف بجواره وتزداد جمالًا كلما رأيتها، انسحبَت من المكتب وأغلقته ورائها، وبادرني هو بقوله:

تفضلي يا شروق... لدينا عميل جديد سنتعاقد معه لشراء أحد برامجنا، ولقد اخترتكِ أنتِ لتكوني مسؤلة عن هذا المشروع.

مسئولية كبيرة، أشكر ثقتك في قدرتي على إدارة هذا المشروع.

أنتِ مهندسة ذكية ومتفوقة يا شروق، وأعجبني أدائكِ في المشروع الذي كنتِ تعملين فيه مع أمير؛ وأنا واثق من اختياري لكِ... سأُرسل لكِ على الإيميل كل تفاصيل المشروع الجديد وبيانات العميل، حتى تبدأي التواصل معهم، سيحضرون الأسبوع المقبل لاجتماع أولي لمناقشة طلباتهم، وقومي بالتنسيق مع أمير بالنسبة للفريق الذي سيعمل معكِ.

إن شاء الله تسير الأمور كما يجب.

أنا واثق من هذا.

شعرت بسعادة لأنه أعطاني مشروع كامل لأكون مسئولة عنه وأديره بنفسي، ها أنا ذا أحقق تقدم ونجاح في عملي، وهذا بالتأكيد سيرفع نسبة حبي لهذا العمل... ذهبت على الفور لأمير وأخبرته بهذا المشروع، ففرح مثلي بهذا الخبر، وبدأ يناقشني فيمَن سيعمل معي في هذا المشروع.

حضرت رحاب اليوم متأخرة حوالي ساعتين عن موعد العمل، وبمجرد دخولها من الباب كانت تُشع بالفرح والسعادة وهي تقول لي بدلًا من صباح الخير:

قولي لي مبروك يا شروق.

ألف مبروك... والآن قولي لي السبب.

قمت بالأمس بالاشتراك في تدريب إذاعي، والثلاثة الأوائل في نهاية هذا التدريب سيقومون بتقديم برنامج إذاعي لمدة عام بأكمله، سأبذل قصارى جهدي لأكون من هؤلاء الثلاثة الأوائل.

خبر رائع يا رحاب.

إنها خطوتي الأولى في طريق النجومية والنجاح... حتى أصل للتليفزيون يجب أن أمر أولًا بالإذاعة... ألا تعتقدين هذا؟

لا أدري، ربما... على العموم كلها خبرات تُضاف لخطواتكِ على الطريق.

خطوات إذاعية مسموعة.

وضحكنا معًا ثم قلت لها:

وأنا أيضًا لديّ خبر سعيد.

قولي بسرعة، يبدو أنه يوم الأخبار السعيدة، هل تعثرتِ في حب جديد هذا الصباح؟

ألا تفكرين إلا في الحب؟

وهل يوجد في الدنيا أجمل من الحب؟

نعم يوجد، النجاح أجمل من الحب... الأستاذ ربيع أعطاني اليوم مشروعًا جديدًا لأكون مديرة هذا المشروع.

واو... ممتاز جدًا... أنتِ لها يا بشمهندسة.

الروح الحماسية لرحاب أضافت جمالًا لليوم الذي كان جميلًا منذ بدايته، لكن ما أكثر الأشياء التي قد تعكر صفو الجمال في أي لحظة خاصةً إذا كانت سحابة تفرض وجودها على حياتي... فبينما أنا في طريق عودتي من العمل حدث لي شيئًا غريبًا في الشارع، على بُعد عدة أمتار من المبنى الذي أسكن فيه؛ وأنا أسير في طريقي كانت هناك سيدة تسير في الاتجاه المعاكس لي تحمل طفلة في حوالي

عـام مـن عمرهـا، وعندمـا مـرا بجـواري نظـرت فـي إتجاهـي تلـك الطفلـة وأشـارت ناحيتـي قائلـة (سـحابة)، عنـد سـماعي لهـذه الكلمـة التـي تصـف وجهـى توقفـت مكانـي مـن هـول المفاجـأة، إنهـا تـرى وجهـي السـحابة!... أسـرعت ألحـق بـالأم وابنتهـا وأوقفتهـا وأنـا أسـألها:

ماذا قالت ابنتكِ وهي تُشير ناحيتي؟

اندهشت الأم من تصرفي هذا وردت عليّ:

ماذا قد تكون طفلة صغيرة قالت لكِ؟

هل قالت سحابة؟ هل سمعتيها تقول هذه الكلمة؟

ومـا هـي المشـكلة فـي أن تقـول سـحابة؟ إنهـا تتعلـم نطـق الكلمـات الجديـدة والسـماء مليئـة بالسُـحب.

ثـم احتضنـت ابنتهـا بقـوة وأسـرعت مبتعـدة عنـي خوفًـا مـن أن أكـون شـخص مجنـون... ووقفـت أنـا فـي مكانـي بـلا حركـة، أُحـاول فَهـم مـا حـدث للتـو، وأن هنـاك عينـان غيـر عينـيّ اسـتطاعتا رؤيـة وجهـي السـحابة، ثـم نظـرت للسـماء فوجدتهـا بالفعـل مليئـة بالسُـحب... هـل كانـت الطفلـة تقصـد بكلمتهـا وجهـي أم سـحابة مـن السـماء؟

لـم أسـتطع العـودة للمنـزل قبـل أن أتأكـد ممـا يـدور فـي رأسـي مـن أفـكار حـول إمكانيـة الأطفـال رؤيـة وجهـي السـحابة... أخـذت أسـير فـي الشـوارع وأقتـرب مـن أي طفـل يسـير مـع والديـه، بعضهـم كان يتجاهلنـي، وبعضهـم شـعرت بـه ينظـر إلـيّ وقـد اتسـعت حدقتـا عينيـه، لكـن لـم يشـر أي منهـم ناحيتـي ويقـول سـحابة.

تكـون بداخلـي يقيـن قـوي بـأن الأطفـال فـي عمـر عـام أو عاميـن لديهـم القـدرة علـى رؤيـة وجهـي السـحابة، لأن أعينهـم مازالـت بريئـة نقيـة، أمـا أعيـن الكبـار فـلا يمكنهـا أن تـرى الخـوارق والعجائـب مثـل وجهـي، فهـي بالتأكيـد قـد ارتكبـت مـن المعاصـي مـا يمنعهـا مـن ذلـك.

مـاذا عـن أعيـن المخلوقـات الأخـرى؟ ضـرب السـؤال رأسـي فجـأة وأنـا

أسير في الشارع، وأخذت أفكر في القطط والكلاب والطيور، هل يمكن لأعينها أن ترى وجهي السحابة؟ وإذا استطاعت أن تراه، فكيف لي أن أعرف هذا؟

أخذت أبحث من حولي في الشارع عن أي قطة أو كلب، وقفت أسفل بعض الأشجار وأنا أبحث بين أغصانها عن عصفور... ماذا سيحدث لو رأت الحيوانات والطيور وجهي السحابة؟ هل سيفرون مني أم سيطاردونني؟ كنت أنقاد وراء أفكار تكاد أن تُصيبني بالجنون؛ لذا فقد وضعتُ حدًا لكل هذا وعدتُ مسرعة لأمان المنزل الذي يمكنه أن يحميني من كل العيون، موقفة عقلي عن التفكير في أي شيء.

في البيت وقفت أمام النافذة، وأنا أُمسك بكوب شاي أدرت إصبعي على حوافه وأنا أفكر في احتمالية تطور حالتي ليُصبح في إمكان الآخرين رؤية وجهي السحابة، سيبدأ الأمر بالأطفال، ثم بالأكبر عمرًا، فالأكبر، وهكذا حتى يستطيع الجميع رؤية السحابة التي تحتل وجهي، ماذا سيحدث لي إذا تحقق هذا؟ أي مصير قد أكون مُقبلة عليه؟... شربت القليل من الشاي ثم أخذت أنظر للسُحب في السماء وأراقب سرب طيور يحلق بعيدًا... هل وجهي هو سحابة صيف أم سحابة شتاء؟ لأي الفصول قد أصلح؟

انغمست تمامًا في إدارة مشروعي الجديد في العمل، اجتماعات ومناقشات وتحضير وإدارة، تجربة غنية أضافت لخبراتي وأكلت المزيد من وقتي، حتى في المنزل كنت أصطحب العمل معي ليؤنسني.

وها هو شهر رمضان الكريم سيبدأ في الغد، فرصة لمزيد من الدعاء ومزيد من الصلاة، فرصة عظيمة لا تأتي إلا مرة واحدة في العام لجني ملايين الحسنات وإحياء القلوب الميتة، لذا يجب عليّ أن أضع خطة مُحكمَة لاستغلال أوقات هذا الشهر الثمينة، أحضرت دفتر

العبـادات الـذي أخصصـه لمثـل هـذه الخطـط والمشـروعات؛ وبـدأت فـي وضـع خطـة العبـادة لشـهر رمضـان كمـا أتمنـى، ثـم سـمعت طرقًـا علـى البـاب، فتحتـه فوجـدت أسـتاذ مينـا يقـف أمامـي وفـي يـده فانـوس رمضـان؛ أعطـاه لـي وهـو يقـول:

كل سنة وأنتِ طيبة يا شروق... رمضان كريم.

وحضرتـك طيـب يـا عمـو مينـا، ألا تنسـى أبـدًا الفانـوس فـي كل عـام... اللـه لا يحرمنـي منـك.

تسلمي يا بنتي... سأتركِ مع الفانوس، تصبحين على خير.

لا يمكـن، يجـب أن تتنـاول العشـاء معـي... طهـوت اليـوم صينيـة بطاطـس باللحمـة فـي الفـرن سـتعجبك.

لا أستطيع، سيأتي مايكل بعد قليل ليأخذني للطبيب.

سلامتك... ماذا بك؟

مشاكل القلب العادية، لا شيء جديد.

ذهـب أسـتاذ مينـا، ولعبـت بعـض الوقـت بالفانـوس الجديـد، سِـرت بـه أغنـي فـي الصالـة والحجـرات والمطبـخ، وأنـا أتخيـل أن هنـاك أسـرة تعيـش معـي وتشـاركني الاحتفـال بقـدوم الشـهر الكريـم، قالـت لـي أمـي المتخيَلَـة التـي كانـت تتابـع حلقـة مـن مسلسـل تليفزيونـي: "لا تنسـي يـا شـروق أن تحضـري معـكِ فـي الغـد كنافـة، وأنـا سـأُعد لكـم إفطـارًا شـهيًا"... وقـال لـي أبـي المتخَيَـل الـذي كان يقـوم بتغييـر إحـدى اللمبـات فـي الصالـة: "لا تسـهري كثيـرًا يـا شـروق حتـى يمكنـكِ الاسـتيقاظ فـي السـحور"... وتخيلـت أن لـي ثلاثـة أخـوة كلهـم مـن الذكـور، أحدهـم يتحـدث فـي الموبايـل، والآخـر خـرج مـع أصحابـه، أمـا الثالـث فيقـف فـي النافـذة يعاكـس بنـت الجيـران.

بعـد أن انتهيـت مـن اللعـب بالفانـوس ومـن التخيـل، وضعتـه فـوق أحـد الأرفـف الـذي أخصصـه لفوانيـس رمضـان التـي يحضرهـا لـي أسـتاذ

مينـا كل عـام منـذ أن انتقلـت للعيـش هنـا... وقبـل أن أعـود لوضـع خطـة رمضـان سـمعت طرقًـا علـى البـاب مـرة أخـرى، تـرى مَـن يكـون هـذه المـرة؟ غيـر معقـول أن يكـون أخـي الـذي تخيلتـه وقـد خـرج مـع أصحابـه... فتحـت البـاب فوجـدت عمّـة تـاج، قبلتنـي وأعطتنـي حقيبـة بهـا "ياميـش رمضـان" الـذي أحضرتـه لـي، رفضـت أن تبقـى بعـض الوقـت لأنهـا يجـب أن تذهـب لابنتهـا إلهـام لتعطيهـا الحقيبـة الخاصـة بهـا قبل أن يتأخـر الوقـت؛ شـكرتها بشـدة وكنـت سـعيدة بأنهـا تعتبرنـي مثـل ابنتهـا.

أكلـت حفنـة مـن اللـوز وواصلـت وضـع خطـة رمضـان، وقبـل أن أنتهي منهـا سـمعت طرقًـا علـى البـاب، يبـدو أن الجميـع قـد تذكرونـي هـذه الليلـة، فتحـت البـاب فوجدتـه يقـف أمامـي بابتسـامته المعتـادة وفـي يـده طبـق كبيـر مـن الحلـوى:

سامح!... ما هذا؟

ماما تقول لكِ كل عام وأنتِ بخير... غدًا أول رمضان.

وأنـت بخيـر وماما بخيـر وكلكـم بخيـر... لـم يكـن هنـاك داعـي لـكل هـذا.

ظـل واقفًـا مكانـه مشـرعًا ابتسـامته عـن آخرهـا، فأخـذت منـه طبـق الحلـوى وشـكرته وأغلقـت البـاب... حالـة سـامح أصبحـت مسـتعصية وأنـا لا أجـد لهـا حـلًا، يـزداد حبـه لـي كل يـوم وأنـا أزداد بُعـدًا... هـذا المراهـق الـذي لا يريـد أن يفهـم أنـه لا يمكنـه الاقتـراب مـن مجـال مشـاعري مهمـا فعـل.

أكلـت مـن الحلـوى، واسـتكملت وضـع خطـة مرضيـة لرمضـان، ثـم فتحـت اللابتـوب لأتفقـد أحـوال العالَـم مـن حولـي مـن خـلال الانترنـت، فوجـدت إيميـل مـن وجـدان، لـم نكتبـت لبعضنـا البعـض منـذ أشـهر طويلـة... تـرى مـا الـذي جعلهـا تتذكرنـي الآن؟... فتحـت الإيميـل وبـدأت أقـرأ:

عزيزتي فراق

كيف حالكِ؟ أرجو أن تكوني بخير.

أعرف أننا تباعدنا كثيرًا في الفترة الأخيرة... الحقيقة تباعدنا منذ أن عرفت أن بابا يحبك ويريد الزواج منكِ، لم يخطر في بالي يومًا أن أجد نفسي في موقف كهذا مع صديقة عمري... المهم ليس هذا هو الموضوع الذي أريد الحديث فيه... فكرت أن نتقابل وأقول لكِ كل ما أريد، لكني لم أجد الشجاعة للحديث معكِ في هذا الموضوع وجهًا لوجه.

سامحيني يا فراق، واغفري لي لو استطعتِ، وأرجو أن تستطيعي.

لقد خبأت عنكِ شيئًا ما كان يجب أن أُخبأه، كنتُ مدفوعة بغضب وألم وعدم استقرار نفسي، ودفعني كل هذا لكي أفعل ما فعلت، لكني الآن أُريد أن أعترف لكِ وأريدكِ أن تسامحيني.

قبل أن يقوم بابا بإجراء عملية القلب المفتوح أعطاني صندوقًا صغيرًا وطلب مني أن أعطيه لكِ إذا حدث ولم ينجُ من العملية، ثم كرر طلبه هذا مرة أخرى قبل وفاته بساعات، طلب مني أيضًا ألا أفتح الصندوق فوعدته، لكني أخلفت وعدي... وبعد عدة أيام من وفاته تذكرت الصندوق، وسمحت لنفسي أن أفتحه، وأن أُخلف وعدي وأطلع على ما فيه، حتى أني قرأت الخطاب الذي كتبه لكِ قبل موته... أعرف أن هذه حقارة، لكني فعلتها، وعندما رأيت حجم حبه الكبير لكِ من خلال كلماته وكذلك أنه اختصكِ بأسرار لم أكن أنا ابنته الوحيدة أعرف عنها شيئًا، شعرت وقتها بالغضب الشديد بل والحقد عليكِ، ووصلت ربما لمرحلة كرهكِ... رأيت بوضوح أنكِ أصبحتِ تقتسمين حبه معي، أنا ابنته الأجدر بهذا الحب وحدي، وربما كنتِ تأخذين نصيبًا أكبر من نصيبي من هذا الحب... وفي هذه اللحظة، وأنا مدفوعة بكل هذا الغضب والكُره، قررت ألا أعطيكِ هذا الصندوق، ولن أسمح لهذه الكلمات أن تصل إليكِ... لذا فقد

خبأتـه معـي بـكل مـا فيـه، ولـم أقـل لأحـد شـيئًا عنـه... وتماديـت فـي أفعالـي فأحرقـت فسـتان الفـرح الـذي اشـتراه لـكِ قبـل سـفره لمدريـد، وكان لشـدة اندهاشـي وغضبـي يحتفـظ بـه وسـط ملابسـه.

وهـا أنـا ذا الآن، بعـد حوالـي عـام ونصـف مـن رحيلـه، أنـدم علـى أفعالـي هـذه، وأريـد أن أعطيـكِ الصنـدوق الـذي يخصـكِ بـكل مـا فيـه، وكل مـا تركـه لـكِ قبـل رحيلـه، لكـن للأسـف لـن يمكننـي أن أُعيـد لـكِ فسـتان الفـرح الـذي أحرقتـه... لا تسـأليني عـن الأسـباب التـي جعلتنـي أفعـل هـذا الآن، أُفضـل الاحتفـاظ بهـا لنفسـي.

أنـا فـي القاهـرة هـذه الأيـام، وأود أن أراكِ لبضـع دقائـق لأعطيـكِ الصنـدوق، وربمـا كان لقاؤنـا الأخيـر.

رقـم هاتفـي كمـا هـو... أخبرينـي ولـو حتـى برسـالة عـن المـكان والموعـد الـذي يجـب أن نلتقـي فيـه.

تحياتي.

وجدان

قـرأت الرسـالة ثـلاث مـرات، وأنـا لا أدري بالضبـط مـا هـي مشـاعري، كانـت مزيـج مـن الحـزن والألـم والغضـب فـي آنٍ واحـد... كيـف لهـا أن تمنـع عنـي كلمـات كنـت فـي أمـس الحاجـة إليهـا، كيـف لهـا أن تُخبـئ وصيـة ميـت عـن قلـب كان يحبـه... هـل يمكننـي أن أسـامحها علـى فعلتها هـذه؟ هـل يمكننـي أن أغفـر لهـا؟ ربمـا نعـم، لكـن ليـس الآن، وليـس قبـل أن أقـرأ الكلمـات التـي كتبهـا لـي، والتـي وحرمتنـي منهـا كل هـذا الوقـت.

أمسـكت الموبايـل وبحثـت عـن رقـم وجـدان، ثـم بعثـت لهـا بهـذه الرسـالة المختصـرَة:

(الخميس - التاسعة مساءً - ستاربكس - سيتي ستارز).

وتلقيت منها الرد بعد خمس دقائق برسالة أكثر اختصارًا.

(أوك).

14

ليلة رمضانية هادئة وجميلة، وصلت مقهى ستاربكس مبكرًا عن الموعد، في حوالي الثامنة مساءً، طلبت "موكا" وجلست أشربها على مهل وأنا أنتظر وجدان... نظرت من حولي للجالسين في المكان، معظمهم من الشباب، وأكثرهم ثنائيات، فكرت في نفسي أنا المفرد الذي لا يكمله أحد، متى سأجد الحب الذي يمكنه أن يجلس معي على طاولة واحدة، نقتسم عليها كلمات بنفس النكهة، ونشرب من نبع حنين واحد.

ذهب تفكيري ذات يوم إلى احتمال أن يكون هذا الذي يحدث لي هو عَمَل من أعمال السحر، أحدهم صنع لي سحرًا يجعلني أرى وجهي على هيئة سحابة، وأرى كوابيس وأحلام لا تنتهي، وربما ربط هذا العَمَل في شجرة في الصحراء، أو دفنه في مقبرة قديمة، وقد أبقى هكذا لبقية عمري بوجه سحابة!... لكن مَن هذا الذي قد يصنع لي سحرًا كهذا، ولماذا؟ فكرت أن أذهب لأحد هؤلاء الذين يمكنهم أن يكتشفوا أعمال السحر ويداوا الناس منها، لكني خِفتُ من الدخول في هذا النفق المظلم الذي لا أعرف له مخرجًا والذي أخاف مما أقرأه عنه، لذا فقد أبعدت كل هذه الأفكار عن رأسي؛ ليكن سحرًا أو ليكن ما يكون.

أخذت أشرب الموكا اللذيذة، وأنا أُفكر في المكالمة الهاتفية التي تلقيتها هذا الصباح، والتي كانت من دكتورة فريدة التي كدتُ أن أنساها وأنسى لقائي الوحيد بها وبالطب النفسي... سألتني لماذا لم أعد مرة أخرى إليها، وسألتها باندهاش هل هي تتابع كل الحالات التي تأتيها بهذه الدقة وتقوم بالاتصال بهم:

بالطبع لا... أنتِ حالة خاصة جدًا يا بشمهندسة فراق، لم تمر

علـيّ مـن قبـل وربمـا لـم تمـر علـى طبيـب آخـر.

بصراحـة يـا دكتـورة فريـدة أنـا لـم أتنـاول الـدواء الـذي وصفتيـه لـي، لأنـي لـي مخًـا واحـدًا، ولا أريـد تخريبـه بأدويـة أيًـا كان مفعولهـا.

أتفهـم وجهـة نظـركِ... فـي الحقيقـة أنـا أقـوم حاليًـا بالتحضيـر لرسـالة الدكتـوراة، وأدعمهـا ببعـض الحـالات التـي مـرت بـي، ووجـدتُ أن حالتـكِ متميـزة جـدًا، وأردتُ إن وافقـتِ بالطبـع أن...

قطعت جملتها قبل أن تُكملها:

لا يـا دكتـورة، أنـا آسـفة... لسـتُ فـأر تجـارب، وليسـت حالتـي محـل نقـاش أو دراسـة.

لا تفهمي الموضوع من هذه الناحية.

أنا أفهمه من الناحية التي يجب أن يكون فيها.

لا عليـكِ، كان مجـرد اقتـراح، أعتـذر مـرة أخـرى... وآسـفة إذا كنـت سـببت لـكِ أي ضيـق... ويمكنـكِ أن تأتـي لعيادتـي وقتمـا تشـائين.

أشـكركِ علـى تفهمـك لوجهـة نظـري، وأعتـذر لأنـي لا أسـتطيع مسـاعدتكِ... حضرتـك طبيبـة مجتهـدة، وسـتحققين نجاحًـا كبيـرًا فـي مجـال عملـكِ.

أنهيـت المكالمـة معهـا وأخـذت أبكـي، شـعرت بالشـفقة علـى نفسـي، هـا أنـا ذا قـد أصبحـت مجـالًا لأن أُوضـع تحـت الدراسـة، ويتـم عمـل الأبحـاث عـن حالتـي... أي بـؤس أكثـر مـن هـذا قـد أصـل إليـه؟

أخرجتـي وجـدان مـن التفكيـر فـي هـذه المكالمـة الصباحيـة عندمـا جـاءت فـي تمـام التاسـعة، كـدتُ لا أعرفهـا وهـي تقتـرب مـن المنضـدة التـي أجلـس عليهـا، نقـص وزنهـا كثيـرًا، وكانـت شـاحبة الوجـه، ألقـت علـيّ تحيـة سـريعة وجلسـت أمامـي حتـى قبـل أن أرد عليهـا، فـي لحظـة نسـيت غضبـي منهـا ومما فعلتـه بـي، وسـألتها عـن حالهـا البـادي أمامـي:

خير يا وجدان، ماذا بكِ؟ أراكِ متعبة.

ردت بسرعة واقتضاب:

لا شيء.

ثـم أخرجَـت مـن حقيبـة يدهـا حقيبـة جلديـة بنيـة اللـون، بداخلهـا صنـدوق صغيـر، وضعتهـا أمامـي وهـي تقـول:

يجـب أن أذهـب الآن فهنـاك ضيـوف فـي انتظـاري فـي المنزل... آسـفة مـرة أخـرى يا فـراق، وسـامحيني.

قامـت مـن مكانهـا وذهبـت دون أن تُعطينـي أي وقـت لأرد عليهـا، أو أن أطـرح عليهـا أي سـؤال... هكـذا كان اللقـاء معهـا، قصيـرًا ومقتضبًـا.

جلسـت حوالـي عشـر دقائـق أنظـر للصنـدوق الموضـوع أمامـي، دون أن يكـون لـديّ القـدرة علـى أن ألمسـه، شـعرت وكأنـه نعـش بداخلـه جثـة ماضـي ميـت، صنـدوق آخـر يأتينـي علـى غيـر موعـد، وكأنـه لـم يكـن تكفينـي صناديـق تـاج التـي تركهـا لـي... بعـد أن أطلـت النظـر للصنـدوق، اسـتجمعت قـوايّ وأخذتـه مـن مكانـه، احتضنتـه بقـوة، ودفعـت حسـاب "المـوكا"، ثـم خرجـت مـن المـكان.

لـم أنَـم تلـك الليلـة حتـى آذان الفجـر... بعـد أن عـدت للبيـت، ألقيـتُ نظـرة علـى السـحابة التـي كانـت رماديـة اللـون، ثـم أخرجـت الصنـدوق مـن الحقيبـة الجلديـة وتفحصتـه مـن الخـارج، صنـدوق مـن الصَـدَف المتناسـق الخطـوط والدوائـر، جميـل وكأنـه تحفـة، يطوقـه شـريط أحمـر مـن الحريـر، لـم يكـن عليـه أيـة كلمـة مكتوبـة مـن الخـارج... وضعتـه أمامـي وخفـت أن أفتحـه، لا أدري مـاذا هنـاك ينتظرنـي بداخلـه لمـدة عـام ونصـف... تركتـه مكانـه وتوضـأت وصليـت قيـام الليـل، ودعـوتُ اللـه كثيـرًا ألا أجـد بداخـل الصنـدوق جـرح آخـر يؤلمنـي، يكفينـي مـا أنـا فيـه مـن جـراح وفـراق، ثـم جلسـت أمامـه وبقلـب مرتعـش فتحتـه.

كان بداخلـه خاتَـم سـوليتير، عقـد لؤلـؤ أبيـض وجميـل، مفتاحـان، خطابـان، وبضعـة أوراق... أمسـكت بالمفتاحيـن، أحدهمـا مُلصـق عليـه

ورقة مكتوب عليها "المهندسين"، والآخر عليه ورقة مكتوب عليها "مدريد"... تركت المفتاحين ومررتُ بيدي على الخاتم والعقد، ثم تناولت الخطابان، كان مكتوبًا على أحدهما من الخارج (إلى فراق)، والآخر ليس عليه أي شيء، لذا فقد فتحتُ الذي عليه اسمي وبدأت أقرأ:

حبيبتي فراق

أكتب لكِ هذه الكلمات قبل أن أدخل حجرة العمليات لإجراء عملية قلب مفتوح، وأنا لا أدري هل سأبقى على قيد الحياة بعدها أم لا... وقبل أن يَمَس مشرط جرّاح قلبي الذي يحبك، أردت أن أكتب لكِ ما لم تسمح لي الأيام بأن أقُله... حكيت لكِ من قبل باختصار عن الطبيبة التي كنت أحبها منذ ما يقرب من سبع سنوات ولم ألتقِ بها مرة واحدة، وبأنها كانت حبي الأكبر والأجمل، لكني أعترف لكِ الآن أنه بعد أن أحببتكِ أصبحتِ أنتِ حبي الأكبر والأجمل؛ وإن مت الآن ستظلين حبي الأكبر والأجمل للأبد.

قبل أن أسافر إلى مدريد أعددت كل شيء لزواجنا، لم أخبركِ بهذا حتى أجعلها مفاجأة لكِ عندما أعود... اشتريت لكِ أحلى فستان فرح ووضعته وسط ملابسي في حجرة نومي... أخذت أوراق تعييني من المكتب وباتصالاتي البنكية فتحت لكِ حساب بنكي جديد باسمكِ، وضعت لكِ فيه مليون جنيه، هو مهر زواجكِ... إن لم أنجُ من هذه العملية الجراحية فهذه النقود هي لكِ، حافظي عليها ولا تُنفقيها إلا فيما يستحق. (أترك لكِ هنا تفاصيل حسابكِ البنكي هذا).

لديّ شقة في المهندسين لا يعرف عنها أحد شيئًا ولا حتى وجدان؛ أذهب إليها عندما أريد الاختلاء بنفسي... أضع فيها كل ما أحب من كتب وموسيقى ولوحات وصور، بها صور أحببتها وعشت بصحبتها أيامًا سعيدةً، إن لم يُمهلني الموت الوقت الكافي كي

أستبدلها بصور أخرى فسامحيني، وقومي أنتِ بهذه المهمة بالنيابة عني... هذه الشقة هي باختصار جنتي على هذه الأرض، أرتاح فيها كلما حاصرني تعب العالَم... وعندما فكرت لمَن يجب أن أترك هذا المكان الخاص جدًا بي بكل ما فيه مما أحب، فلم أجد غير شخص أحبني بشدة وأحببته... أنتِ يا فراق... استخدمت أوراق تعييني أيضًا وطلبت من المحامي أن ينقل ملكية هذه الشقة لكِ. (أترك لكِ هنا عقد الملكية باسمكِ ومفتاح الشقة)... انتقلي للعيش فيها، واجلسي على الأرائك التي كنت أجلس عليها، ونامي على السرير الذي كنت أنام عليه، اسمعي الموسيقى التي كنت أسمعها، واقرأي الكتب التي نظرت فيها.

لستُ أقل حبًا لكِ من تاج الذي ترك لكِ كل ما يملك قبل أن يرحل... أنا أترك لكِ القليل مما أملك، وليتني استطعت أن أترك لكِ أكثر من هذا، لكني أخاف عليكِ من وجدان.

منذ أعوامًا طويلة مررتُ بأزمة صحية طاحنة، وكنت على حافة الموت، لكني نجوت منه... وقتها فقدت الأمل في الحياة وفي كل شيء، وأبعدت عني القلب الذي أحبني وأحببته، وعندما رأيتكِ شعرت بأن هذا القلب قد عاد لي مرة أخرى... كنتِ تسألينني فيما بعد "أي زهرة هذه التي تشبهني بها؟" ولم أُجب مطلقًا على سؤالكِ هذا، لكن لا بد أن تعرفي... أنتِ يا فراق تشبهين حبي الأكبر والأجمل قبل أن أعرفكِ، اسمها "زهرة"، طبيبة وكاتبة، صدرت لها ثلاث روايات، آخرها رواية بعنوان (الطابق الثالث من العتمة)، أحببتها بجنون، وجاء الموت ليجعلني أذبح هذا الحب بيديّ وأُبعدها عني، لم أرَها يومًا، لكني كتبت لها قصة حياتي كاملة وأرسلتها لها، تقمصت شخصية صديق لي وأخبرتها بنفسي من خلال الانترنت أني قد مت، أردت أن أرى تأثير موتي عليها بنفسي... أرسلت لها مع صديقي قصة

حياتـي التـي كتبتهـا مـن أجلهـا هـي فقـط، وأرسـلت لهـا بعـض الهدايـا التـي كنـت أشـتريها لهـا خصيصًـا ولـم أسـتطع أن أقدمهـا لهـا بنفسـي... بعـد أن أبعدتهـا عنـي بإرادتـي جـاء الشـفاء وابتعـد المـوت، وابتعـدت هـي؛ ولـم أشـأ أن أقتحـم حياتهـا مـرة أخـرى، إلـى أن جـاء اليـوم الـذي رأيتـكِ وأنـتِ طالبـة عندمـا حضـرتِ مـع وجـدان للبيـت، وقتهـا انخطـف قلبـي وكـدتُ ألا أُصـدق عينـايّ، أنـتِ تشـبهينها كثيـرًا، وكأنـي أقـف أمـام صـورة حيـة مـن حبيبتـي التـي لـم أرَ عينيهـا إلا فـي الصـور... منـذ ذلـك اليـوم وأنـا أتقصـى أخبـاركِ مـن وجـدان، وأتتبعـك مـن بعيـد فـي بعـض الأوقـات، إلـى أن تخرجتمـا مـن الكليـة، فأحضرتـكِ معهـا لتعملـي لـديّ فـي المكتـب، كـي أراكِ أمامـي باسـتمرار، ثـم أحببتـكِ كمـا أحببتهـا، ومـع مـرور الأيـام أحببتـكِ أكثـر.

تمنيـت كثيـرًا أن أقابلهـا ولـو لمـرة واحـدة، أن أخبرهـا أنـي لـم أمـت؛ لكنـي لـم أسـتطع... خِفـتُ أن أُشـوه الحـب الـذي أحبتـه لـي وأن أقصيهـا عنـي أكثـر، خِفـتُ أن أعتـرض طريقهـا فـي الحيـاة بعـد أن حـددت خطواته دون أن يكـون لـي فيـه خطـوة واحـدة... إذا وصلـكِ هـذا الخطـاب فحتمًـا سـأكون قـد رحلـت عـن هـذه الدنيـا، وأود لـو أنهـا تعـرف باقـي الحكايـة وأنـا لسـت هنـا، وأنـتِ خيـر مَـن يتحـدث عنـي... اذهبـي إليهـا يـا فـراق، قابليهـا بالنيابـة عنـي، أخبريهـا بباقـي الحكايـة التـي لا تعرفهـا... أحضريهـا معـكِ وأنـتِ تزوريـن قبـري، أريدكمـا أنتمـا الاثنتـان، أريدكمـا معًـا، حتـى وإن كنـتُ عظامًـا فـي مقبـرة.

فـي مدريـد لـي مسـكنان، واحـد تعرفـه وجـدان والآخـر شـقة صغيـرة لا يعـرف عنهـا أحـد شـيئًا، أريـد أن تكـون هـذه الشـقة لزهـرة، وبمـا أنـي لا أسـتطيع تغييـر ملكيتهـا باسـم زهـرة لأننـي ليـس لـديّ أي مسـتندات خاصـة بهـا، لـذا فقـد نقلـت ملكيتهـا باسـمكِ أنـتِ، وأريـدكِ بعـد أن تقابلـي زهـرة أن تعطـي لهـا المفتـاح الـذي أتركـه لـكِ هنـا، وأن تنقلـي

ملكية هه الشقة باسمها، لم أُخبر وجدان بكل هذا لأني خشيت ألا تفعل ما أريد، لكني أثق فيكِ أنتِ.

أترك لكِ هنا في هذا الصندوق عنوان ورقم تليفون أستاذ حسن المحامي الذي يتولي المسائل القانونية لي، اذهبي إليه وسيساعدك في أي شيء تريدينه، أنا أخبرته عنكِ وأوصيته بمساعدتكِ في كل ما تحتاجينه.

كتبت أيضًا خطاب لزهرة أضعه هنا مع خطابكِ في الصندوق... بعد أن تحكي لها باقي الحكاية التي لا تعرفها، أعطيها الخطاب.

يبدو أنني غير قادر على استكمال حب حتى آخره، عندما أحببت زهرة في الماضي وبدأت أتخذ خطوات جادة للارتباط بها جائني المرض وأبعدني عنها... والآن بعد أن قمت بكل الاستعدادات لزواجي منكِ يأتيني مرض آخر لا أعرف حتى إن كنت سأنجو منه أم لا.

عند وصولي هنا إلى مدريد اشتريت لكِ خاتم الزواج وعقد من لؤلؤ لأجمل عنق... إذا حرمتني الأيام من أن أُلبسهم لكِ بنفسي فالبسيهم أنتِ، وتذكري أجمل لحظة مرت بيننا، تلك التي كانت في مصعد برج القاهرة.

فراق... أحبك

انتهت سطور الخطاب، ولم تنتهِ دموعي من الهطول، جرح موته انفتح مرة أخرى في قلبي وأخذ ينزف بغزارة... احتضنت الخطاب وقبلته، ثم ارتديت العقد والخاتم، وضممت يدي اليمنى على القلب المرسوم بها، ونمت وأنا أحلم بشفتيه تقبلاني كما فعل في مصعد برج القاهرة.

15

حبيب آخر ترك لي خطابًا ونقودًا وبيتًا، ورحل... ماذا يوجد بي حتى يترك لي الآخرين كل شيء ويرحلون هم... ألا يستطيع أحدهم أن يبقى معي؟

حكايته مع زهرة شغلت تفكيري، وأشعلت الغيرة في قلبي، هل كان يحبها هي في صورتي أنا التي تشبهها، أم أنه أحبني أنا لشخصي؟ هل عندما قبلني كان يُقبل فيّ زهرة التي لم يستطع أن يراها يومًا؟

كم كنتُ ساذجة وأنا أتوقع أنه يشبهني بإحدى زهور الحدائق، لم يخطر مطلقًا ببالي أنه يشبهني بزهرة من لحم ودم، زهرة تشبهني في الشكل، في ملامح وجهي التي غابت عني... يجب أن أبحث عن زهرة وأراها حتى أرى نفسي، حتى يمكنني رؤية وجه يشبه وجهي الذي لا يمكنني رؤيته.... أيضًا عليّ أن أُخبرها بباقي الحكاية التي لا تعرفها، وأُعطيها الخطاب الذي تركه لها ولديّ فضول لكي أعرف ما بداخله، لكني لن أفعل هذا بالتأكيد، ويجب عليّ أن أنقل لها ملكية شقة أسبانيا التي هي باسمي حاليًا... وليتها تسمح لي بأن أقرأ قصة حياته التي كتبها لها ولم يحكِها لي.

ظللت لمدة أسبوع أحاول أن أُدرك أبعاد هذه الثروة التي هبطت عليّ فجأة؛ مليون جنيه، شقة في المهندسين باسمي، عقد لؤلؤ، وخاتم سوليتير... كانت كلها ملكي منذ عام ونصف مضى لكني لم أكن أدري بها، وكان من الممكن ألا أعرف عنها شيئًا لولا تدابير القدر التي لا أعلمها، والتي أحضرت لي ما أمتلكه حيث أكون... مازلت لا أعرف لماذا فعلت وجدان هذا وأعادت لي هذه الأشياء بعد كل هذا الوقت الطويل، يجب أن ألتقي بها وأسألها.

كنا نقترب من منتصف رمضان عندما ذهبت لزيارته في المقبرة،

أحمل في يدي باقة ورد، وفي عينيّ دموع، وفي قلبي بقايا حب لم يمت... جلست على الأرض أمام القبر، وتركت كلماتي ودموعي تتحدثان بدون قيود:

"أحيانًا أندم على أني عرفتك، على أني أحببتك، ربما كنت أنا قدم الفراق الذي أبعدك عني وعن الدنيا كلها، لكن المعالج النفسي الذي ذهبت إليه قال لي أنه لا يجب أن أفكر بهذه الطريقة، ليس لاسمي أي سبب في فراق الآخرين، ولكل إنسان عُمْر معروف قبل حتى أن يُولد... كثيرة هذه الأشياء التي تركتها لي، هل حقًا أستحقها؟ الحب الذي أعطيته لك أخذت حبًا مقابلًا له، حبًا ملأ حياتي بالسعادة التي استكثرتها عليّ الأيام، فأخذتها وأخذتك.

كما طلبت مني في خطابك، سأبحث عن زهرة وأقابلها، وأحكي لها عنك وعن باقي الحكاية التي لا تعرفها، سأُعطيها الخطاب، وأنقل لها ملكية شقة أسبانيا، سآتي بها إلى هنا، سنأتيان لك معًا، قلبان أحباك وابتعدت أنت".

بعد حوالي ساعة من الحديث من طرف واحد، لملمتُ شتاتي ونهضت من فوق الأرض، تركت باقة الورد على القبر، وتركت قُبلة على اسمه المحفور فوق شاهد القبر، وذهبت.

لم أكن أعرف من أين أبدأ، وماذا أفعل بكل هذه الأشياء التي تركها لي، فقمت بالاتصال بالأستاذ حسن المحامي الذي ترك لي اسمه ورقم تليفونه في الصندوق كي يساعدني ويقول لي ماذا عليّ أن أفعل... عرفني بمجرد أن ذكرت له اسمي، وطلب مني أن أذهب لمكتبه في المساء، وقبل أن يُنهي المكالمة قال لي: "لماذا تأخرتِ هكذا في الاتصال بي يا فراق؟"

عندما ذهبت إليه حكيت له لماذا تأخرت هكذا في طلب مساعدته، وكيف أني لم أعرف بهذه الأشياء التي تركها لي والد

وجـدان غيـر مـن أيـام قليلـة... الأسـتاذ حسـن كمـا عرفـت هـو محامـي مشـهور ولـه اسـم معـروف، قـد تجـاوز السـتين مـن عمـره، أبيـض الشـعر، شـديد الـذكاء، عرفـت منـه أن والـد وجـدان لـم يكـن محامـي العائلـة فقـط، لكنـه كان صديقـه المقـرب، وقـد حدثـه عنـي كثيـرًا، وأوصـاه أيضًـا علـيّ فـي أحاديثـه معـه قبـل أن يمـوت... راحـل آخـر يوصـي علـيّ أقـرب أصدقائـه إليـه.

ذهـب معـي أسـتاذ حسـن إلـى البنـك الـذي لـي حسـاب بـه بقيمـة مليـون جنيـه، وعوملـت هنـاك معاملـة خاصـة تتناسـب مـع حجـم رصيـدي لديهـم... قمـت بتحديـث بياناتـي فـي الحسـاب ليشـمل رقـم هاتفـي وعنوانـي، وسـاعدني فـي اسـتخراج كارت إئتمـان أسـتطيع مـن خلالـه سـحب النقـود مـن أي مـكان بـه ماكينـة صـرف آلـي... وسـحبت خمسـة آلاف جنيـه مـن حسـابي، وعـدت للمنـزل بعـد أن شـكرت أسـتاذ حسـن كثيـرًا علـى مسـاعدته، وأخبرتـه بأنـي سـأقوم بالاتصـال بـه مـرة أخـرى بعدمـا أقابـل زهـرة، وآتـي معهـا كـي يسـاعدني فـي نقـل ملكيـة شـقة مدريـد مـن اسـمي لاسـمها.

طلـب منـي فـي خطابـه ألا أُنفـق هـذه الأمـوال إلا فيمـا يسـتحق، وهـا هـي أول خمسـة آلاف منهـا أنفقهـا فيمـا يجـب أن يكـون، فيمـا يسـتحق، فـي صدقـات علـى روحـه فـي شـهر الرحمـة هـذا... وزعتهـا كلهـا علـى الفقـراء والمحتاجيـن، ووضعـت مبلغًـا منهـا فـي ظـرف خطـاب ألقيتـه مـن أسـفل بـاب منـزل أم سـامح، هـم فقـراء لكنهـم لا يقولـون.

فـي اليـوم التالـي ذهبـت للمهندسـين، إلـى عنـوان الشـقة التـي تركهـا لـي، ومعـي إحـدى المفتاحيـن الذيـن كانـا فـي الصنـدوق والمُلصـق عليـه كلمـة "المهندسـين"... بنايـة ضخمـة بهـا مـا يقـرب مـن عشـرين طابقًـا، وقفـت فـي أسـفلها أنظـر لأعلـى، ثـم تقدمـت مـن البـاب الحديـدي الـذي يظهـر مـن خلفـه مدخـل مـن الرخـام الرمـادي اللـون الفخـم... عندمـا

رآني البواب قام من مكانه واقترب مني:

أي خدمة يا هانم؟

أنا صاحبة الشقة 21 في الدور السابع.

البشمهندسة فراق؟

اندهشت عندما نطق اسمي:

كيف عرفت اسمي؟

البشمهندس الله يرحمه حدثني عنكِ قبل أن يسافر المرة الأخيرة التي لم يرجع بعدها... قال لي أنكِ ستأتين هنا عن قريب وطلب مني أن أُحضر لكِ كل ما تحتاجين له عندما تأتين... الله يرحمه البشمهندس كان أكرم واحد في العمارة... لكنكِ تأخرتِ كثيرًا في الحضور يا بشمهندسة.

بعض الظروف التي منعتني... لكن قل لي كيف عرفت بخبر موته؟

دكتور محمد جاره في شقة 22 هو الذي أخبرني.

ما اسمك؟

اسمي نعيم يا ست هانم.

أعجبني اسمه كثيرًا "نعيم"، يا له من اسم جميل، تركته يقول كل ما يريد وأنا أرد عليه بكلمات قليلة، وظل يحكي دون توقف عنه وعن صفاته الجميلة وكرمه البالغ وهو يصطحبني في المصعد حيث الدور السابع، فتح لي باب المصعد وخرجت منه لأجد نفسي في ردهة مستطيلة بها أربعة أبواب لأربعة شقق مختلفة، بحثت عن الشقة رقم 21 وكانت بجوار السلم، اتجهت ناحيتها يتبعني البواب، باب خشبي أنيق بني اللون ومقبض ذهبي جميل، وأمام الباب سجادة صغيرة عليها كلمة الترحيب (Welcome)... أخرجت المفتاح من حقيبة يدي وفتحت الباب، ثم التفت للبواب وشكرته، وأعطيته

بعـض النقـود وأغلقـت البـاب ورائـي.

أضأت الأنوار ووقفت في مواجهة ذكريات حية لحبيب راحل.

خلـف البـاب ردهـة صغيـرة بهـا مـرآة ومنضـدة، وضعـت المفتـاح عليهـا ثـم نظـرت فـي المـرآة فطلـت علـيّ منهـا صـورة السـحابة، تركتهـا وتقدمـت داخـل الشـقة، صالـة متسـعة مفروشـة بأثـاث جميـل ومتناسـق الألـوان، إضائـة صفـراء دافئـة، وعلـى الحائـط الـذي أمامـه أريكـة كانـت هنـاك مفاجـأة فـي انتظـاري، صـورة بحجـم كبيـر تشـبهني كثيـرًا، ليسـت أنـا لكنهـا تقتـرب منـي بدرجـة ملحوظـة، وقفـت أمـام الصـورة وأخـذت أتفحصهـا وألمسـها بيـديّ، نفـس اسـتدارة الوجـه، نفـس الأنـف والحاجبين، عينـايّ وابتسـامتي، لا بـد وأنهـا زهـرة، كـم نحـن متشـابهتان لدرجـة كبيـرة؛ لـم يكـن يخطـر ببالـي أن الشـبه بيننـا كبيـر لهـذه الدرجـة.

بجـوار التليفزيـون كانـت هنـاك صـورة أخـرى لزهـرة فـي إطـار وردي اللـون، وفـي حجـرة النـوم صـورة لهـا فـي إطـار زهـري اللـون، وفـي حجـرة المكتـب صـورة لهـا داخـل إطـار بنـي، حتـى فـي المطبـخ وجـدت صـورة لزهـرة فـي إطـار أخضـر، إنهـا هنـا فـي كل مـكان، تؤطـر صورهـا الألـوان المختلفـة... كلمـا نظـرت فـي اتجـاه أراهـا تنظـر لـي بابتسـامتها أو بجديتهـا، لهـا صـور بكامـل طولهـا وأخـرى مـن منتصفهـا وصـور للوجـه فقـط، هـي أطـول منـي قليـلًا وأصابـع يديهـا تبـدو أجمـل، ترتـدي فـي كل الصـور ملابـس أنيقـة وأحذيـة جلديـة جميلـة... لنـا نفـس لـون الشـعر ونفـس الطلـة.

شـعرتُ بغصـة فـي حلقـي، وبقعـة كبيـرة مـن الحـزن كانـت تزحـف منتشـرة علـى جـدران قلبـي، فهـو لـم يضـع لـي صـورة واحـدة فـي المكان، كل الصـور كانـت لزهـرة... فهمـت الآن معنـى مـا أخبرنـي بـه فـي خطابـه مـن أن الشـقة بهـا صـور أحبهـا وعـاش بصحبتهـا أيامًـا سـعيدة، وإن لـم يُمهلـه المـوت الوقـت الكافـي كـي يسـتبدلها بصـور أخـرى فعلـيّ أن

أسامحه وأقوم أنا بهذه المهمة بالنيابة عنه، فهمت الآن أي صور كان يتحدث عنها في خطابه، صور زهرة التي احتفظ بها حتى آخر يوم في حياته.

جلست في الصالة لا أدري ماذا أفعل بصور حبيبة غيري تملأ المكان من حولي... هل يجب أن أزيلها وأستبدلها بأخرى كما طلب مني؟ هل يحق لي أن أفعل هذا؟ تركتها مكانها حتى يمكنني التفكير بشكل أفضل، ثم تجولت في كل أنحاء المنزل، وفتحت كل النوافذ التي كان يُطل اثنان منها على جيران آخرين، والباقي يُطل على شارع فرعي هادئ تحفه الأشجار من الجانبين... في حجرة النوم مررت بيدي على ملابسه، ورششتُ فوق ملابسي من زجاجات عطره.

في حجرة المكتب كانت تُزين إحدى حوائطه لوحة بديعة لمركب شراعي ضخم وبحر متسع... وضعتُ بعضًا من الموسيقى التي كان يحبها، فملأت المكان بأنغامها الجميلة، ثم تصفحت بعض الكتب، وجلست على المكتب الذي كانت عليه عدة نسخ من كل رواية لروايات زهرة الثلاث، تلك التي كانت تنظر لي من فوق المكتب من داخل إحدى صورها.

المنزل عبارة عن قطعة من الفن والجمال، كل ركن فيه وكأنه يحكي حكاية، يُخبئ وارءه قصة يحتاج لمَن يكتشفها أو يكتبها... كل تحفة وكل لوحة لا بد وأن ورائها ذكرى جميلة.

أخذت نسخة من كل رواية من روايات زهرة، وأغلقت النوافذ، ثم أطفأت الأنوار، وخرجت من الشقة وعدت لبيتي الذي أعيش فيه، لا أستطيع في الوقت الحالي أن أبقى هناك وكل هذه الصور تراقبني وتنظر في اتجاهي في كل مكان... يجب أن ألتقي بزهرة، لكن يجب عليّ أن أعرفها أولًا قبل أن ألتقي بها.

كنا نقترب من أجازة عيد الفطر، لذا فقد أخذت أجازة ليومين

إضافيي،ن وأصبح لديّ أسبوعًا بأكمله أجازة من العمل، قررت أن أخصصه لزهرة ورواياتها... بحثتُ أولًا في الانترنت عن كل روايات زهرة، وجدت أن لديها أربع روايات، آخر رواياتها كانت قد نشرتها بعد موته، لذا لم يكن منها نسخه في شقته، اشتريت الرواية الرابعة ثم قضيت عدة أيام وأنا أقرأ الروايات الأربع... أعجبتني كثيرًا طريقتها في الكتابة، ومزج الواقع بالخيال، خاصةً في رواية (دموع البحر)... كنت أتعرف عليها من خلال كلماتها، ثم بحثت عنها على الفيسبوك، ووجدتها بسهولة، وأرسلت لها طلب إضافة فقبلته.

دخلت صفحة زهرة على الفيسبوك، وقرأت كلماتها التي أعجبتني مثلما أعجبتني رواياتها، ثم تفقدت صورها، إنها نفس الصور التي تملأ شقته في المهندسين، حتى الصور الحديثة منها قبل موته كان يطبعها ويضعها في براويز أنيقة ويعلقها في بيته، كان مستمرًا في حبه لها، وربما كنت أنا الصورة الحية التي تُكمل هذا الحب.

طبعت بعضًا من صورها حتى يكون لديّ شيء يُذكرني بملامح وجهي المختفية، أخيرًا وجدت صورة قريبة مني يمكنني أن أراها بدلًا من هذه السحابة التي تتصدر وجهي ليل نهار... عرفتُ أيضًا من صفحتها أنها متزوجة ولديها ولد في حوالي الخامسة من عمره، زوجها طبيب أيضًا ولهم بعض الصور على الصفحة والتي تعكس حياة أُسرية سعيدة... كم هو رائع هذا الفيسبوك الذي يعطينا صورة كامله عن الأشخاص الذين نود التعرف عليهم، دون عناء تحري وتقصي الأخبار من آخرين، صورة مدعومة بصور وأحداث وكلمات.

أيضًا من صفحتها على الفيسبوك عرفت اسم ومكان المستشفى التي تعمل به، وذهبت بعد انتهاء أجازة العيد لهناك، وأنا لا أدري ماذا سأقول لها، وكيف سأقص عليها حكايتي معه، أو بشكل أدق حكايتها... في المستشفى عرفت أنها لن تحضر في ذلك اليوم، لكنهم أخبروني

بأنني سأجدها مساءً في العيادة الخاصة بها، أخذت العنوان وأخذت لباقي اليوم أستعد أكثر لهذا اللقاء في المساء.

عيادة هادئة غير مزدحمة؛ سجلت اسمي في دفتر الكشوفات وجلست أنتظر دوري... سبقني ثلاثة مرضى أعطوني فرصة لمراجعة أخيرة لكلماتي التي يجب أن أقولها، والتي لم أستطع أن أقل منها شيئًا.

بمجرد أن دخلت حجرة الكشف ووقعت عيناها عليّ حتى تجمدت مكانها متسعة العينين من الشبه الكبير الذي رأته بيننا، لم أندهش أنا مثلها لأني أعرفها جيدًا من الصور، لكن انخطف قلبي عند رؤيتي لها بعيدًا عن الصور الصماء، نفس الملامح الهادئة والنظرة الغامضة والشعر الأسود الطويل اللامع، ترتدي بالطو الأطباء الأبيض، تظهر من تحته بلوزة حريرية زرقاء... جلست على المكتب أمامها، فتمالَكت نفسها وقالت لي:

تشبهينني كثيًرا، هل كنتِ تعرفين هذا الشبه الكبير بيننا قبل أن تأتي إلى هنا؟

نعم كنت أعرفه... أنا صديقة لكِ على صفحتكِ في الفيسبوك.

هذا يفسر عدم اندهاشكِ عند رؤيتي... ما اسمكِ؟

لي اسمان، اختاري الذي يعجبكِ... فراق أو شروق.

أفضل فراق، اسم نادر وجميل... فراق ماذا؟

فراق جابر عبد الرحمن.

كتبت اسمي في أعلى الورقة ثم سألتني عن عمري:

27 سنة.

مما تشتكين يا فراق؟

أنا لا أشتكي من شيء وانعقد لساني فلم أستطع أن أقول أي من الكلمات التي راجعتها مرارًا في رأسي، ربما كان لديّ مرض في القلب

مـن تعاقـب الحـب والمـوت عليـه، ليتهـا تسـتطيع اكتشـافه ووصـف الدواء المناسـب لـه، ربمـا كان دواء الحـب هـو حـب آخـر، أمـا المـوت فمـاذا قـد يكـون دواءه؟ وجـدت نفسـي أقـول لهـا:

هل يُعتبر الحب مرضًا يصيب القلب؟

نظرت لي بصمت ثم قالت:

دعيني أفحصكِ أفضل.

تمـددت علـى السـرير وأنـا لا أدري لمـاذا أفعـل هـذا، أنـا لسـتُ مريضـة، ولسـتُ هنـا بغـرض طلـب العـلاج... تركتهـا تسـمع دقـات قلبـي، وتقيـس نبضاتـي، وكنـتُ أواصـل النظـر لوجههـا الـذي يشـبه وجهـي، والـذي اشـتقتُ إليـه كثيـرًا، وهـي أيضًـا كانـت تختلـس النظـر لـي مـن وقـت لآخـر، وكأنهـا غيـر مصدقـة هـذا الشـبه الكبيـر بيننـا.

بعـد أن فحصتنـي بتلـك السـماعة الحديديـة البـاردة، كتبـت بعـض الأدويـة علـى الروشـتة، وشـيء آخـر علـى ورقـة منفصلـة، أردت أن أقـول لهـا لا تكتبـي دواءً لأنـي لـن آخـذه؛ لكنـي تركتهـا تـؤدي دور الطبيبـة حتـى آخـره، نظـرت لـي مـرة أخـرى وقالـت:

إذًا أنـتِ واقعـة فـي الحـب، وهـذا يجعلـكِ تشـعرين ببعـض التعـب فـي القلـب.

لا، ليس صحيحًا... لستُ واقعة في أي حب في الوقت الحالي.

إذًا لماذا أنتِ هنا؟ وما هي المشكلة التي تعانين منها في قلبكِ؟

لـم أسـتطع أن أرد أو أقـول شـيئًا، باغتنـي هجومهـا هـذا علـيّ فـي الـكلام، فقالـت هـي:

علـى العمـوم أنـا أرى أنـه لا شـيء لديـكِ... كتبـت لـكِ بعـض المقويات وتحليـل روتينـي إذا أردتِ أن تقومـي بعملـه، فقـط للاطمئنـان علـى صحتـكِ.

ومـدت يدهـا فـي اتجاهـي بالورقتيـن، فأخذتهمـا وقمـت مـن مكانـي

وأنا أنظر إليها... حادة وعنيفة هي خلاف كتاباتها الرقيقة، تُرى ماذا كان يحب فيها؟

أردتُ أن أفتح فمي وأخبرها بما جئت لكي أقوله، لكني لم أستطع قول شيئًا ولا أدري ماذا حدث لي، ربما كان السبب هو أنه لقائي الأول بها، لذا فقد انسحبت من أمامها وقررت أن أعود في اليوم التالي بعزيمة أكبر مما أنا عليه... في المساء فكرت أن أكتب لها رسالة على الفيسبوك، لكن ربما أنها لا تفتح صندوق رسائلها، وقد لا تكون تقرأ رسائل آلاف الأصدقاء الذين تمتلكهم هناك.

لذا فقد عدتُ في اليوم التالي بتصميم أكبر، وطلبت من الممرضة أن تجعلني آخر الذين سيدخلون للطبيبة حتى لا يؤثر ما سأقوله لها على تعاملها مع باقي المرضى... عند رؤيتي كانت مندهشة لعودتي سريعًا هكذا:

خير يا أستاذة فراق؟

مهندسة فراق.

لم أكن أعرف أنكِ مهندسة... خير يا مهندسة فراق؟ هل أصابكِ تعب آخر؟

أنا لستُ مريضة، ولم أكن هنا بغرض العلاج.

طلت من عينيها العديد من الأسئلة، فبدأت في إجابتها قبل أن تنطق بها:

أنا كنت مرتبطة بشخص كان يحبكِ، تعرفين أنه مات منذ عدة أعوام لكنه في الحقيقة مات منذ حوالي عام ونصف فقط... ترك لي ولكِ أشياءً لم تصلني إلا منذ عدة أيام فقط، وأُريد أن أعطيها لكِ كما أوصاني في خطابه.

أخرجت من حقيبة يدي الخطاب الذي كتبه لها، ومددتُ يدي به ناحيتها... أخذته في صمت، وقبل أن تفتحه قلت لها:

لا أعـرف مـاذا كتـب لـكِ فـي الخطـاب، وأعتقـد أنـه حكـى لـكِ عنـي بداخلـه، سـأتركِ الآن مـع خطابـه، وأنـا متأكـدة أنـه سـيكون لنـا أكثـر مـن لقـاء آخـر.

كتبـت لهـا رقـم هاتفـي علـى ورقـة، وانسـحبت مـن المـكان فـي صمـت، لأتركهـا مـع الخطـاب بمفردهـا.

16

ليلة شتوية باردة بعدها يوم أجازة من العمل، هذا ما أسميه رفاهية العيش... أعددت حساءً ساخنًا شربته وأنا أقرأ قصيدة لأمل دنقل (قصيدة ماريا) ثم انزلقت تحت الأغطية مصطحبة كوب شاي يتصاعد منه البخار، كوب شاي بمثابة الدفء ليديّ وقلبي وأخذت أشاهد فيلم رومانسي جميل نمت بعده لأرى أحد أحلامي الغريبة... حلمت بأني داخل مياه بحر أو ربما محيط، مياه تتلألأ بنور الشمس الذي يأتيها من أعلى، أسبح بداخلها مثل سمكة، لي جسم امرأة ووجه سمكة مثل وجوه باقي الأسماك التي كانت تُحيط بي، ذراعيّ كأنهما زعنفتين، وقدميّ ذيل مشقوق... كنت داخل البحر لحضور حفلة زفاف ملكة أسماك الماندارين هكذا كانوا يلقبونها، لها ألوان متعددة وزاهية، يلتف حولها أسماك من نفس النوع واللون، حضر الحفل أيضًا أسماك من فصائل وأنواع أخرى... كانت الملكة ترتدي اللؤلؤ وتجلس فوق كومة من الطحالب الخضراء وخلفها شعاب مرجانية حمراء وبجوارها العريس الذي لا يقل جمالاً وألوانًا عنها... أخذت الأسماك ترقص وتدور حولهما وكنت أدور معها في رقصة مرحة زاهية الألوان.

استيقظت من الحلم سعيدة بتلك الحفلة المائية الملونة وقررت أن يكون غدائي اليوم سمك... ثم ذهبت للمرآة كي أطمأن إلى أن وجهي مازال سحابة ولم يتحول لوجه سمكة، فآخر ما أتمنى أن أصبح سمكة تمشي على الأرض.

أصبحت الأحلام الغريبة تحتل نومي في معظم الأيام، كل حلم منها يصلح لأن يكون قصة خيالية تُحكى... اعتدت عليها وأعتبرها من الأشياء الطبيعية بعد ظهور السحابة في وجهي، وأشعر بالقلق إذا

حـدث ولـم أحلـم حلمًـا غريبًـا لأسـبوع علـى الأكثـر.

اليـوم كانـت رحـاب تراجـع معـي المشـروع الإذاعـي الـذي ستشـترك بـه فـي التدريـب لاختيـار أفضـل ثلاثـة مشـاريع لتكـون برامـج حقيقيـة يتـم إذاعتهـا فـي الراديـو لمـدة عـام... كان مشـروع رحـاب هـو برنامـج إذاعـي فكرتـه جديـدة مـن نوعهـا، اسـم البرنامـج (الخزائـن المفتوحـة)... وفـي كل حلقـة سـيقترح المسـتمعون فكـرة البرنامج للأسـبوع القـادم ويتم التصويـت عليهـا مـن خـلال صفحـة البرنامـج، وأكثـر فكـرة سـتحصل علـى عـدد أصـوات سـتكون هـي موضـوع الحلقـة للأسـبوع القـادم... أعجبتنـي الفكـرة كثيـرًا وشـجعتها علـى أن تُعـد لهـا جيـدًا وبالتأكيـد سـتكون مـن الأوائـل فـي التدريـب.

أردت أن أعـرف لمـاذا فعلـت وجـدان هـذا وأعـادت مـا تركـه والدهـا لـي بعـد كل هـذا الوقـت، أرسـلت لهـا عـدت إيميـلات أطلـب منهـا أن نلتقـي ولـو لبضـع دقائـق لكنهـا لـم تـرد علـى أي منهـا، حاولـت الاتصـال بهـا علـى الموبايـل لكـن فـي كل مـرة تأتينـي رسـالة بأنـه مغلـق لـذا فقـد ذهبـت للفيـلا التـي تعيـش فيهـا، كان المـكان يلفـه الصمـت والبوابـة الحديديـة مغلقـة، تطلعـت لأعلـى وكانـت كل النوافـذ موصـدة، نظـرت للطابـق الثالـث الـذي كان مـن المفـروض أن يكـون بيتـي لـولا موتـه، تخيلـت كل الأثـاث والأشـياء التـي اشـتريناها معًـا والتـي لا بـد وأنهـا هنـاك مرتعًـا للغبـار الـذي يحتلهـا، وكأنـي اخترتهـا للغبـار كـي يسـتمتع بهـا بـدلاً عنـا، تخيلـت نفسـي أقـف فـي إحـدى تلـك الشـرفات وأتجـول داخـل تلـك الحجـرات، أصابتنـي غصـة فـي حلقـي وابتلعـت مـرارة هـذه الذكـرى ثـم دققـت علـى البـاب الحديـد فخـرج لـي البـواب الـذي يبـدو جديـدًا فـي المـكان:

أهلاً يا ست هانم... أي خدمة؟

كنت أريد مقابلة بشمهندسة وجدان، هل هي موجودة؟

مَن حضرتك؟
أنا مهندسة فراق زميلتها في الكلية وصديقتها.
بشمهندسة وجدان في أسبانيا... ربنا يشفيها.
هل هي مريضة؟
بعيد الشر عنك يا هانم عندها المرض الخبيث وحالتها خطيرة.
متى حدث هذا؟
بعد موت البشمهندس الله يرحمه بحوالي عام.

شكرته وأعطيته بعض النقود وذهبت وأنا كلي ألم لهذه الأخبار التي سمعتها عن وجدان، هذا يُفسر إذًا سر أنها أعادت لي الصندوق وكل ما تركه لي والدها لأنها أصبحت على حافة الموت... ليتني أستطيع أن أراها أو أن أخفف عنها بعضًا من آلامها.

استمرت محاولاتي في الاتصال بها وإرسال بعض الايميلات أسأل عنها وعن صحتها لكن لم يصلني أي رد عليها، فقمت بالاتصال بالأستاذ حسن المحامي فهو محامي العائلة ولا بد أنه يعرف تفاصيل أكثر عن حالتها، عرفت منه أنها أخذت بنصيحته ودخلت مصحة علاج في أسبانيا على أمل الشفاء من السرطان الذي اكتشفته في مراحل متقدمة... آلمني ما حدث لوجدان وأخذت أدعو لها في صلواتي بالشفاء، كذلك سامحتها على ما فعلته بي.

بعد ثلاثة أيام من لقائي الأخير مع زهرة وفي مساء يوم جمعة هاديء كنت أقرأ فيه رواية (كتيبة سوداء) وأنا أشرب كوب ساخن من الكاكاو عندما جائني إتصال هاتفي من رقم مجهول، رددت عليه لأجدها زهرة:

مهندسة فراق؟

نعم.

أنا زهرة.

أهلاً دكتورة زهرة.

أرجوكِ قولي لي زهرة فقط.

وأنا فراق فقط.

هل يمكن أن نلتقي؟ لديّ الكثير لأتحدث معكِ فيه... فقد عرفت بعض الأشياء عنكِ من خطابه... لدينا أشياء مشتركة أهمها حبه لكلينا ثم الشبه الكبير بيننا.

بالتأكيد يمكننا أن نلتقي... لكن أرجوكِ ليس في العيادة، بصراحة أنا لا أحبها.

لا بالتأكيد ليس في العيادة، أنا أريد مكان مفتوح، مكان به خُضرة، ما رأيكِ بالحديقة الدولية؟ أنا غدًا ليس لديّ عمل، هل يناسبك؟

ممتاز جداً.

يمكنني أن أمر عليكِ بسيارتي في العاشرة صباحًا في المكان الذي تريدينه.

وهو كذلك... اتفقنا، ليكن بيننا اتصال آخر في الصباح.

في اليوم التالي كنت معها في سيارتها نتجه للحديقة الدولية بالقاهرة، لفنا صمت كثيف ثم قامت هي بكسره ووضعت إسطوانة غناء في محرك الاسطوانات بالسيارة وبدأ صوت محمد منير يملأ المكان... (بكتب حروف إسمك بحبات الندى على كل أوراق الشجر... مين اللى يقدر يعشقك أدي أنا.. مين اللى يقدر يوصفك زى أنا.. يا حلم نفسي تحلمه كل القلوب.. يا أعلى إحساس شدني خلاني أدوب.. خلاني أحس إني بشر).

جلسنا في "برجولة" من تلك المنتشرة بالحديقة، يحفنا اللون الأخضر من كل مكان، وتطل علينا من أعلى سماء زرقاء منقوشة بسُحب بيضاء، سُحب تُشبه وجهي السحابة الذي لا يراه أحد غيري،

هـل يمكننـي أن أخبرهـا بمشـكلة وجهـي؟ أصارحهـا بأنـي عندمـا أنظـر إليهـا فأنـا أنظـر لوجهـي الـذي لا أسـتطيع رؤيتـه، لا أعتقـد أن لـديّ الشـجاعة لأخبرهـا بهـذا... كان الجـو رائعًـا وشـمس الشـتاء دافئـة وانتظـرت حتـى بـدأت هـي الـكلام:

أولاً أشكركِ يا فراق على أمانتكِ وأنكِ أوصلتِ لي خطابه.

لـم أفعـل إلا مـا يجـب فعلـه، كان مـن الممكـن ألا تصلنـا هـذه الخطابـات.

كيف هذا؟

حكيـت لهـا مـا فعلتـه وجـدان معـي، حكيـت لهـا قصتـي معـه ثـم قلـت لهـا:

مازالـت هنـاك شـقة أسـبانيا التـي يجـب أن أنقـل إليـكِ ملكيتهـا كمـا طلـب منـي.

هل ترك لكِ شقة أنتِ الأخرى؟

نعم، ترك لي واحدة هنا في المهندسين... مملؤة بصوركِ.

صوري أنا؟!

نعم، هذا ما وجدته عندما دخلتها، ليس فيها صورة واحدة لي.

لكنـه أخبرنـي فـي خطابـه أنـه أحبـكِ مثلمـا أحبنـي وأكثـر لأنـكِ كنـتِ الصـورة التـي لـم يسـتطع أن يلمسـها فـيّ.

هو هكذا بالضبط... أنا كنت الصورة وأنتِ دائمًا كنتِ الأصل.

نظـرت لشـجرة أمامهـا وكأنهـا تتأملهـا ولـم تقـل شـيئًا... شـعرت بالبـرد يتخللنـي حتـى العظـام فطلبـت منهـا أن نمشـي قليلاً فـي ممـرات الحديقة الواسـعة وتحـت هـذه الشـمس المسـالمة، اشـترينا بعـض المشـروبات السـاخنة مـن الكافيتيريـا وأخذنـا نشـربها ونحـن نمشـي فـي الممـرات بيـن اللـون الأخضـر السـاحر وقـد كان الهـدوء والسـكينة يغمـران كل شـيء وطلبـت منـي فـي صـوت منخفـض:

لقد حدثني من قبل عن شقة المهندسين... هل يمكنني رؤية هذه الشقة وتلك الصور؟

نعم يمكننا الذهاب إليها بعد أن نخرج من هنا... وأنا أريد أن أطلب منكِ شيء لو تسمحي لي؟

بالتأكيد... اطلبي أي شيء.

أريد أن أقرأ قصة حياته التي تركها لكِ... هل ممكن أن تعطيني صورة منها؟

نظرت للأرض قليلاً ثم قالت لي:

وهو كذلك... سأعطيكِ صورة منها بشرط أن لا يقرأها أحد غيركِ.

أعدكِ بذلك وأشكركِ.

خرجنا من الحديقة وذهبنا أولاً للمبنى الذي به منزلها، انتظرت في السيارة وصعدت هي حيث أحضرت دفتر قامت بتصويره في إحدى المكتبات القريبة وأعطتني صورة الأوراق التي احتفظت بها في حقيبة يدي وكأنها شيء ثمين أتلهف لقرائته، ثم ذهبنا لشقة المهندسين، في الطريق طلبت منها أن تتوقف قليلاً عند أحد الدكاكين حيث نزلت فاشتريت بعض زجاجات الماء وشاي وقهوة وسكر وبعض المقرمشات والبسكويت.

دخلنا الشقة ووضعت تلك المشتريات على المنضدة بالصالة ثم تركتها تتجول في الشقة وترى صورها الموجودة في كل مكان وتستدعي حضور حبيب كان يعيش هنا... قلت لها أنني سأقوم بتجربة المطبخ لأول مرة، وسألتها ماذا تريد أن تشرب:

شاي.

ابتسمت بمرارة وأنا أتذكره وقلت لها:

قال لي مرة أنني أحب الشاي مثل زهرة، وسألته يومها "وهل تشرب الزهور الشاي؟"... كان يقول لي كثيرًا أنني أُشبه زهرة وكان

تفكيري يذهب في كل مرة لزهور الحدائق، لم أكن أعرف مطلقًا أنكِ أنتِ الزهرة التي كان يشبهني بها.

شربنا أكثر من كوب شاي وتحدثنا كثيرًا عنه وعنا ثم وجدتها تحدثني عن نفسها لأول مرة بكلمات قليلة ومختصرة، ربما أرادت أن تقولها للمكان هنا وليس لي:

أنا وزوجي منفصلان منذ فترة ليست بالقصيرة ونحن الآن على أبواب إنفصال رسمي خلال أيام.

هل دخلت امرأة أخرى في حياته أم أن الحب انسحب من بينكما؟

الاثنان يا فراق... الاثنان.

جمعت كل صورها بالمنزل وأعطيتهم لها، طلبت منها أن أحتفظ فقط بواحدة ولم أذكر لها السبب وهي لم تسأل، لكنها سألت سؤالاً آخر:

طلب مني في خطابه أن أذهب معكِ لزيارته في المقبرة التي تعرفي مكانها، متى يمكننا الذهاب إلى هناك؟

الآن لو أردتِ ذلك.

بالتأكيد أريد... هيا بنا.

كانت الشمس تقترب من المغيب عندما وقفنا نحن الإثنتين أمام قبره في صمت لعدة دقائق، قلبان أحباه وابتعد هو، إنها اللحظة التي أرادها قبل أن يموت، أن نأتي معًا إليه... ثم انسحبت أنا من أمام القبر وتركت زهرة بمفردها حتى تقول له ما تريد أن تقوله، تبكيه كما تحب، إنها المرة الأولى لها التي تقف فيها أمام شيء ملموس منه حتى وإن كان عظامًا في مقبرة.

وقفت أنا أمام قبر آخر لا أعرف الميت الذي بداخله لكني أخذت أدعو له ولجيرانه من الأموات ولأموات العالَم كله، وأدعو كذلك

لنفسي بعد أن أموت... ظللت أقف هناك وأنا أجوب بخيالي عالَم الأموات بكل ما فيه من غموض وحزن وألم، أمواتنا وأموات غيرنا، وأموات لا نعرف عنها شيء، أجيال لا حصر لها من الموتى في كل مكان، حيث توجد الحياة يكون الموت، كل حي هو مشروع ميت حتمي التنفيذ... ظللت أُحلق بتفكيري هكذا من موت لآخر إلى أن وجدت يدًا توضع على كتفي فانتفضت في مكاني ونظرت لأجدها زهرة تقف بجواري بعينين حمراوتين من البكاء، فأخذتها وخرجنا من المقبرة.

اتفقنا على أنها ستقوم بالاتصال بي خلال أسبوع أو اثنين لكي نُنهي إجراءات نقل شقة أسبانيا إليها.

في المساء وأنا في شقة تاج كنت على موعد مع قصة حبيب آخر، أخرجت الأوراق التي قامت زهرة بعمل نسخة لي منها وأخذت أقرأها بتلهف لمعرفة كل حياته وكل تفاصيلها التي اختص بها زهرة ولم يذكر لي منها شيئًا.

شعرت بالغيرة من ذلك الحب الكبير الذي كان يحبه لزهرة، كان واضحًا في كل كلمة كتبها لها، وأصابتني صدمة من بعض أحداث حياته الذي كان يحياها قبل أن يقع في حب زهرة، وتلك الطريقة التي عرفها من خلالها، أراد أن يدخل حياتها لينسج حولها خيوط حب وهمي زائف فإلتفت هذه الخيوط حوله هو، لكنها كانت خيوط حب حقيقي صادق.

بعد ذلك اليوم وزعت أيامي بين شقة المهندسين وشقة تاج كما أحب أن أسميها، بالتأكيد شقة المهندسين أجمل وأكبر وأكثر راحة وبها ذكريات مازالت طازجة لكني لم أكن مستعدة بعد لترك شقة تاج، وكيف سأقول هذا الخبر للأستاذ مينا، وكيف سيتقبله؟ لكني يومًا ما سأذهب لأعيش هناك في المهندسين ومع ذلك لن أترك شقة تاج

مطلقًا، يجب أن تبقى بكل ما فيها من قصته وأشيائه وذكرياته، لذا كان عليّ أن أنتقل من مرحلة الإيجار للشقة لمرحلة التمليك، رغم أنها شقة صغيرة وفي منطقة متوسطة لكني أحبها بشدة وأحب رائحتها والمآذن التي تُطل عليها، والجيران الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم... تحدثت مع صاحب المبنى الذي طلب مبلغًا كبيرًا لكي أتملكها، وافقت وسحبت من حسابي بالبنك هذا المبلغ وأخبرت أستاذ حسن المحامي الذي ساعدني في نقل ملكية الشقة لي، ورفض أن يأخذ أي أتعاب مني نظير خدماته الكثيرة هذه، وعندما زاد إلحاحي قال لي:

اطلبي مني أي شيء في أي وقت يا فراق... أنا لي ديون عنده لا أعرف كيف أسددها، وعندما سألته كيف أرد له بعضًا مما يفعله معي قال لي: "ساعد زهرة وفراق إذا احتاجتا لشيء"... يبدو أن لكما مكانة خاصة جدًا عنده.

لم أفهم معنى كلماته ولا عن أي ديون يتحدث، كل ما فهمته أن زهرة ظلت تحتل مكانة متقدمة عني في قلبه حتى وهو يوصي أصدقائه... لكني لم أسأل أكثر وعدت لشقة تاج التي أصبحت أخيرًا ملكي وأنا أشعر بارتياح كبير لأن تاج وذكرياته سيظلون هنا باستمرار دون أن يهددهم شيء بالانتقال لمكان آخر.

ظللت أتابع مع رحاب نتيجة إختبارات التدريب الإذاعي الذي تشارك فيه، ثم وفي إحدى الليالي وجدتها تقوم بالاتصال بي لتقول لي هذا الخبر السعيد الذي كنت أتوقعه:

شروق شروق... أنا أسعد إنسانة في الدنيا اليوم... مشروع برنامجي فاز بالمركز الأول وستسمعينني عبر موجات الراديو أسبوعيًا لمدة عام كامل.

ولأعوام أخرى كثيرة بإذن الله تعالى... أنا سعيدة جدًا جدًا بهذا الخبر... وانتظريني ضيفة دائمة على برنامجك.

بعد حوالي أسبوعين من لقائي الأخير مع زهرة ذهبت معها إلى مكتب أستاذ حسن المحامي الذي استقبلنا بترحاب شديد وهو ينقل نظره بيننا ويتسائل:

هل أنتما توأم؟

ضحكنا وردت عليه زهرة:

لا لسنا توأم، يوجد بيننا فرق حوالي عشر سنوات.

سبحان الله... الشبه كبير جدًا بينكما.

ساعدنا أستاذ حسن في نقل ملكية شقة أسبانيا من ملكيتي لملكيتها، وقالت لي زهرة بعد أن أنهينا هذه الإجراءات أنها تفكر في أن تأخذ ابنها وتسافر لتعمل وتعيش في أسبانيا، ثم أضافت:

سنظل على اتصال يا فراق، وإذا ذهبتِ لأسبانيا في أي وقت فإن لكِ بيتًا هناك.

سنظل على اتصال يا زهرة... كوني بخير دائمًا.

أفهم تمامًا الآن حبه الكبير لزهرة، إنها كالطيف، شيء جميل يكون أمامك لكنك لا تستطيع أن تلمسه أو تستبقيه.

17

إنـه الشـهر السـادس لـي بـدون وجـه... وأريـد أن أُشـرك أحـد آخـر غيـر أسـتاذ مينـا وأسـتاذ محمـد إبراهيـم والطـب النفسـي وعلـم النفـس فـي مشـكلتي هـذه التـي لا تريـد أن تنتهـي... وليـس هنـاك أفضـل مـن دكتـور رضـا؛ دائمًـا كلمـا رأيتـه أو تحدثـت إليـه يؤكـد علـى أننـي يجـب أن أذهـب إليـه إذا احتجـت إلـى أي شـيء؛ لكـن مـاذا قـد أحتـاج منـه فـي محنتـي الغريبـة هـذه غيـر نصيحـة قـد تفيدنـي وقـد يكـون فيهـا شـفاء لاختفـاء وجهـي؛ لـم أكـن متأكـدة تمامًـا مـن أنـي أسـتطيع أن أخبـره بهـذه المشـكلة اللامنطقيـة واللامعقولـة التـي أنـا واقعـة فيهـا؛ لكنـي فـي حاجـة لأن أراه وأتحـدث معـه... قـررت أن أذهـب إليـه بعـد أن أنتهـي مـن التدريـب الـذي سـأقوم بالإشـراف عليـه وإعطـاء جـزء منـه لإنهـاء المشـروع الـذي أديـره فـي العمـل.

هـذا المشـروع مقـره فـي الإسـكندرية، وأنـا لـم أذهـب لهـذه المحافظـة الجميلـة مـن قبـل، سـمعت عنهـا كثيـرًا لكنـي لـم أرهـا يومًـا أو أرى بحرهـا... أخـذت معـي كتـاب (لا أحـد ينـام فـي الإسـكندرية) كأفضـل رفيـق للسـفر لهـذه المدينـة الجميلـة، وقفـت كثيـرًا أمـام البحـر، وجدتـه متسـع وأكبـر مـن كل الكلمـات التـي قرأتهـا عنـه، رومانسـي أكثـر مـن كل قصـص الحـب التـي كان يجـري فيهـا، غامـض ومهيـب أكثـر مـن كل الغرقـى الذيـن ابتلعهـم... مشـيت علـى شـاطئه، غمسـت قدمـايّ فـي مائـه ورمالـه، غمسـت عينـاي فـي أمواجـه ولـون مياهـه، وتشـبعت أذنـايّ بصوتـه، كنـت أنظـر إليـه وأتسـائل: "مـاذا لـو كان وجهـي قطعـة مـن البحـر، سـائل ومتحـرك ويمكنـه أن يبتلـع شمسًـا بأكملهـا؟".

اسـتمتعت كثيـرًا بهـذه المأموريـة، وقبـل أن أذهـب إليهـا كنـت فـي حيـرة أي الكتـب سـيصحبني فـي سـفري... لكنـي وجـدت كل الأماكـن

كتـب مفتوحـة؛ الطريـق، الشـوارع، المبانـي، البحـر، والنـاس.

لـم أرَ حلمًـا واحـدًا خـلال الأسـبوعين الذيـن قضيتهمـا فـي الإسـكندرية، لكـن بمجـرد عودتـي عـادت الأحـلام، تـرى هـل هـذه الأحـلام مرتبطـة بمدينـة مـا أم بمـكان مـا؟... الليلـة الأولـى بعـد عودتـي رأيـت حلمًـا غريبًـا... رأيـت فـي الحلـم حجرتـي ممتلئـة بفرقـة موسـيقية مـن العصافيـر مكونـة مـن تسـعة عصافيـر وببغـاء، لـم يكونـوا فـي حاجـة لآلات موسـيقية للعـزف عليهـا، فمناقيرهـم كانـت هـي آلاتهـم، علـى التسـريحة ثلاثـة منهم وفـوق خزانـة الملابـس اثنـان، علـى السـرير أربعـة، وعلـى بـاب الحجـرة يقـف الببغـاء بألوانـه الجميلـة، بـدا وكأنـه هـو المايسـترو قائـد الفرقـة، يُحـرك جناحيـه فتزقـزق العصافيـر بأعـذب الألحـان المختلفـة والمكملـة لبعضهـا البعـض... وفجـأة أنهـض أنـا فـي الحلـم مـن فـوق السـرير وأسـير حتـى المـرآة، أنظـر هنـاك لملامـح الوجـه التـي ظهـرت فـي السـحابة، أُغلـق العينيـن وأفتحمهـا فيندلـع البـرق فـي المـكان ثـم أصفـر بالشـفتين فيـدوي صـوت الرعـد، ومـن الأنـف ينهمـر المطـر... ترتعـد العصافيـر وكأن عاصفـة قويـة ضربـت أجنحتهـا ويبكـي الببغـاء، تُفتـح النافـذة ويطيـر الجميـع هربًـا للخـارج وأبقـى أنـا أمـام المـرآة أبـرق وأرعـد وأمطـر.

اليـوم خرجـت للمشـي كمـا اعتـدت أن أفعـل منـذ عـدة أشـهر ثـم تذكـرت دكتـور يوسـف، الأخصائـي النفسـي، هـو الـذي جعلنـي أواظـب علـى عـادة المشـي بتدريباتـه، لـذا فقـد قـررت أن أذهـب مـرة أخـرى إليه، شـعرت بشـوق للقـاء آخـر معـه، أعـرف أنـه لا أحـد يمكنـه أن يُخرجنـي ممـا أنـا فيـه، كمـا جـاءت السـحابة لوجهـي دون سـابق إنـذار أنتظرهـا أن تختفـي أيضًـا دون الخضـوع لعـلاج أو اتبـاع نصائـح وتدريبـات.

وجدتـه أكثـر وسـامة وبشاشـة مـن المـرات السـابقة، لـم يسـألني لمـاذا اختفيـت، لـم يعاتبنـي علـى انقطاعـي عـن الجلسـات، لكنـه اسـتقبلني بترحـاب شـديد وهـو يقـول:

هل أقول فراق أم شروق؟

فراق وشروق، لقد تصالحت مع اسمي ومع مرايا البيت أيضًا.

ممتاز جدًا... لكن هل من جديد؟ هل عاد وجهك؟

لا لـم يعـد بعـد، لكنـي اعتـدت علـى وجـود السـحابة مـكان وجهـي، لـم تعـد تسـبب لـي مشـكلة كمـا كانـت فـي بدايـة ظهورهـا.

خطـوة هامـة علـى الطريـق... عندمـا نتقبـل مـا نحـن فيـه نسـتريح أكثـر... هـل عملـتِ بالنصائـح التـي اتفقنـا عليهـا، الواجـب الـذي أعطيتـه لـكِ آخـر مـرة كنـتِ هنـا؟

نعـم عملـت بهـا جميعًـا وسـاعدني هـذا كثيـرًا علـى أن أعيـد ثقتـي بالعالَـم مـن حولـي وأنفتـح عليـه ولـو لبعـض الوقـت... لكنـي أصبحـت أرى أحـلام غريبـة... أغربهـا رؤيـة أشـخاص كانـوا يعيشـون فـي الماضـي فـي البيـت الـذي أعيـش فيـه والأغـرب أنـي لمـدة أسـبوع بأكملـه كنـت أرى وجوههـم تحتـل وجهـي.

زم شفتيه وفتح عينيه في دهشة ثم قال:

تطور خطير.

نعم هو كذلك.

وهل تأكدتِ من صحة ما رأيتِ؟

لم أفهم السؤال... ماذا تقصد؟

أقصـد هـل كنـتِ تريـن وجـوه أشـخاص حقيقيـة أم أشـخاص ليـس لهـم وجـود.

نعـم تأكـدت، بحثـت ووجـدت أنهـا نفـس الوجـوه التـي كانـت تعيـش فـي المـكان مـن قبـل.

حقيقـي ليـس لـديّ أي تفسـير علـى شـيء كهـذا... هـل مازلـتِ تريـن هـذه الوجـوه حتـى الآن؟

لا... رأيتهـم لمـدة أسـبوع فقـط فـي الأحـلام وفـي وجهـي ثـم اختفـوا...

لا أعـرف حتـى مـاذا يريـدون منـي بظهورهـم المفاجـئ هـذا فـي حياتـي وأحلامـي ووجهـي.

هل فكرتِ بالبحث عنهم ومقابلتهم؟

لا يمكننـي هـذا بـأي حـال مـن الأحـوال لأنهـم ماتـوا جميعًـا فـي حـادث إختنـاق فـي نفـس البيـت.

صمت قليلاً وهو يفكر ثم قال:

فـي هـذه الحالـة أعتقـد أنهـم يريـدون إيصـال رسـالة مـا لـكِ مـن خـلال ظهورهـم هـذا.

وأنـا أعتقـد هـذا أيضًـا، لكنـي لا أعـرف مـا هـي وليـس لـديّ وقـت للبحـث أكثـر فـي قصتهـم... ربمـا لـو ظهـروا لـي مـرة أخـرى أحـاول معرفـة المزيـد عنهـم.

هنـاك إحتمـال آخـر أنـه ربمـا كانـت هـذه الأسـرة تظهـر لـكِ لأنـكِ تفتقديـن الحيـاة الأسـرية... مـاذا عـن إخوتـكِ البنـات، ألـم تفكـري فـي البحـث عنهـم ومعرفـة أخبارهـم؟

لا أعـرف عنهـن شـيئاً مـن سـنين طويلـة، لا أتذكـر حتـى ملامـح معظمهـن.

هـذه ليسـت مشـكلة، ابحثـي عنهـن وإلتفـي حولهـن، جـزء مـن عـلاج مشـكلتك قـد يكـون فـي صلـة هـذه الرحـم المقطوعـة.

هزتنـي جملتـه الأخيـرة بقـوة، هـل أنـا قاطعـة رحـم؟ لا يمكـن أن أكون كذلـك، أنـا لا أعـرف طريقًـا لهـن كـي أصلهـن... قـررت أن أحـاول البحـث عنهـن وإن لـم أنجـح فـي العثـور عليهـن سـأكون قـد حاولـت علـى الأقـل... ثـم سـألته سـؤال أخيـر أردت بشـدة أن أسـمع إجابـة مطمأنـة عليـه:

هـل تعتقـد يـا دكتـور أنـه سـيأتي يـوم وأتذكـر فيـه هـذه الأيـام وأضحـك عليهـا، هـل سـتُصبح ذكـرى لا تُنسـى فـي حياتـي؟ أقضـي بعـض الأمسـيات أتذكـر أيامـي عندمـا كنـت بوجـه سـحابة.

أنا متأكد من أن هذا اليوم سيأتي، وستأتين لي هنا لنلتقط صورة لنا معًا وأنتِ بوجه فراق الجميل الذي أراه أمامي الآن.

في اليوم التالي كنت في المستشفى في مكتب دكتور رضا الذي استقبلني ببشاشته ومرحه المعتاد:

أهلاً أهلاً يا بشمهندسة... أخيرًا رأيناكِ... كيف الحال؟

الحمد لله بخير... كل عام وحضرتك بخير... غدًا أول أيام عيد الأضحى المبارك، توقعت ألا أجدك في العمل اليوم.

وكيف لنا أن نهرب من العمل؟ عيد سعيد عليكِ.

كنت أمر بالقرب من المستشفى فأردت أن أُسلم عليك دكتور رضا وأقول لك عيد سعيد.

وجدت نفسي أكذب بهذه الجملة التي نطقت بها؛ أنا هنا خصيصًا كي أراه وأحكي له مشكلتي... وكانت هذه بداية جعلتني أعدل عن رأيي في أن أخبره بمشكلة وجهي؛ تحدثنا في أشياء عامة وتبادلنا أخبار سطحية وتهاني محفوظة ثم قمت لأذهب عندما استوقفني وأعطاني ورقه كتب عليها شيئًا ما وهو يقول:

هذا هو الإيميل الخاص بي... يمكنكِ أن تكتبي لي وتطمأنيني عليكِ في أي وقت؛ أفضل من أن أعرف أخبارك في المناسبات أو تأتين كالأعياد مرتين فقط في السنة.

ثم ضحك وضحكت معه وأخذت الورقة منه ووضعتها في حقيبة يدي... وجدتها فرصة رائعة أن أخبره عما أنا فيه من خلال الإيميل... سيكون وقعه أفضل بالتأكيد وأقل صعوبة بالنسبة لي، وتحمست للفكرة جدًا وقررت أن أبدأ في تنفيذها في المساء.

عندما عدت لشقتي أدرت الراديو لأستمع للحلقة الأولى من برنامج رحاب في الراديو وكان البرنامج في بدايته وصوت رحاب الجميل يأتيني منه:

أعزائي المستمعين: أهلاً بكم في أولى حلقات برنامج (الخزائن المفتوحة)... هذا البرنامج هو برنامجكم أنتم في المقام الأول، أفكاره ومواضيعه أنتم الذين ستختارونها... وأكثر فكرة ستحصل على تصويت هي التي ستكون موضوع حلقة الأسبوع الذي يليه، ستفتحون خزائن القلب والروح وتخبروننا بما فيها... وبما أننا في أول حلقة للبرنامج فقد اخترت أنا فكرة هذه الحلقة وهي عن (ورود وأشواك الماضي)، ماذا يُمثل لنا الماضي، كيف نتذكره، أين نخبأه بداخلنا، ما هي وروده وما هي أشواكه، هل الماضي هو أنا الذي كنته أم أنا الذي أصبحت عليه... هيا قوموا بالاتصال أو بالكتابة على صفحة البرنامج وأخبروني عن الماضي في حياة كل منكم... وفي نفس الوقت اقترحوا أفكار لموضوع الحلقة في الأسبوع القادم وسيتم التصويت على الأفكار المقترحة لمدة 24 ساعة من الآن وبعد ذلك سنختار الفكرة التي ستحظى على أعلى نسبة تصويت... والآن سأترككم مع الأغنية التي هي من اختياري (شوقنا أكتر شوقنا).

أخذت أغني مع عمرو دياب وصوته الجميل وأنا أُعد كوب من الكاكاو باللبن... ثم دخلت على صفحة البرنامج على الانترنت وأخذت أقرأ الأفكار التي يطرحها المستمعون لحلقة الأسبوع القادم (نافذة للحلم - ما تبعثر منك - قلب للبيع - ألم وأمل - فراغات - علامة تعجب - جرائم صغيرة)... قمت بالتصويت على فكرة (ما تبعثر منك)... ثم قمت بالاتصال بالبرنامج لأقترح فكرة جديدة، لم أرد أن تعرفني رحاب لذا فقد وضعت قطعة قماش على السماعة حتى أجعل صوتي مختلف فلا تعرفني رحاب.

أهلاً بالمستمعة الجميلة، نقول مين؟

اعتبريني سراب، سأسمي نفسي سراب.

أهلاً بالسراب الجميل... ماذا يوجد بداخل خزنتكِ يا سراب؟

يوجد بداخلها شيء غريب، توجد سحابة.

سحابة!... وماذا تحمل هذه السحابة في داخلها؟

تحمل وجهي.

خزنة فريدة من نوعها، لو أننا نمتك سُحبًا في داخلنا أو من حولنا.

أو لو أننا نمتلك سُحبًا مكان وجوهنا... ماذا قد نفعل في هذه الحالة؟

وكيف سنتعامل مع بعضنا البعض بوجوه على هيئة سُحب؟ فكرة أكثر من رائعة، أنا أول من سيقوم بالتصويت عليها للحلقة المقبلة لنتحدث فيها... أشكركِ يا سراب وأشكر خزائن أفكارك الجميلة.

أغلقت الخط قبل أن أعترف وأقول لها أنها ليست أفكار... إنها حقيقة تظهر أمامي في المرآة على هيئة سحابة في مقام وجه:

لقد انقطع الاتصال قبل أن نعرف من سراب حكايتها مع الماضي... هيا افتحوا خزائنكم وقولوا لنا ماذا يوجد بداخلها؟ كل الخزائن من حولنا ممتلئة، ليس هناك وجود لخزينة فارغة أو لخزينة مصمتة... والآن فاصل مع الأغنية التي إختارها لنا مهندس الصوت لحميد الشاعري وصوته الدافئ الحنون (ليلى آه يا ليلى... أنتِ الغناوي الجاية).

تذكرت مع هذه الأغنية أن إحدى أخواتي اسمها ليلى، هي التي احتضنتني بعد موت أمي، كانت لي بمثابة الأم، تزوجت ليلى وتركتنا عندما كان عمري حوالي سبع سنوات ولم أرها مرة أخرى، ترى أين هي الآن وماذا فعلت بها الدنيا؟... أخذت أستمع للأغنية بحنين زائد وأنا أُحضر الصندوق الذي كان لأبي وبه أوراق ومعلومات قد تساعدني في العثور على أخواتي البنات، فربما عند عثوري عليهن يعود لي وجهي المختفي، يعود لي حنين الأسرة الذي أفتقده... أيضًا يجب أن أُخبر دكتور رضا وأتناقش معه في موضوع السحابة، فقد يساعدني

بحـل مـا؛ علـيّ أن أطـرق كل الأبـواب التـي يمكننـي طرقهـا.

واصلــت ســماعي للبرنامــج ولاتصــالات الآخريــن وأنــا أقــوم بإرســال إيميــل لدكتــور رضــا.

تمت

أمل الأصيل

مصر/أسيوط - يونيو/2019